معاني الهجاء في الشعر الأندلسي

أ.م.د. يونس هاشم مجيد كلية التربية / جامعة دهوك

المقدمة :

وأنا أتصفح مصادر الأدب الاندلسي ومراجعه مطالعاً وباحثاً أقف على أبيات شعرية في الهجاء تثير عجبي ودهشتي لما فيها من جرأة في ذكر العورات ولما فيها من ألفاظ السباب والشتم ووصم المهجو ووصفه بما يندى له الجبين.

وما آثار دهشتي وعجبي أكثر مشاركة شاعرات الأندلس في الموضوع وقولهن شعراً في الهجاء يفوق شعر الرجال بذاءة وفحشاً واقذاعاً. ولذلك أحببت أن أبحث الموضوع وأقف على ما قيل من شعر هجائي في عصور الاندلس المختلفة.

وبعد إطالة النظر في مصادر الأدب الاندلس ومراجعة تجمعت لديّ حصيلة جيدة من شعر الهجاء في عصور الاندلس المختلفة استطعت من خلالها أن أضع خطة للموضوع تقوم على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمه كما وضعت فهرساً لمصادر البحث ومراجعة.

تناولت في التمهيد بعض المسائل والقضايا التي آثارها باحثون سابقون مثل:

١- قضية الشعوبية التي أشار أحد الباحثين إلى عدم وجودها في الاندلس.

٢- مسألة انصراف عدد من الباحثين القدامى عن ذكر شعر الهجاء في مؤلفاتهم.

٣- قضية اتسام شعر الهجاء الاندلسي بالعفة وبعده عن الفحش والاقذاع وبذيء الألفاظ كما أشار إلى ذلك أحد الباحثين المحدثين.

٤- مسألة حذف الألفاظ الخاصة بالعورات وما يتصل بها في شعر الهجاء والتي يلجأ إليها بعض الباحثين في مؤلفاتهم.

وتناولت في المبحث الأول معاني شعر الهجاء الاجتماعي.

أما المبحث الثاني فقد عرضت فيه معاني شعر الهجاء السياسي. وأوجزت في خاتمة البحث النتائج التي توصلت إليها.

وتناولت الموضوع تناولاً تاريخياً حيث عرضت شعر الهجاء عرضاً تاريخياً فبدأت بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا وصولاً إلى الحقبة المتأخرة من حياة المسلمين بالاندلس.

ولا أدعي أني وفيت بحثي حقه فكل بحث لابد أن تبقى فيه جوانب نقص لأن الكمال لله وحده وحسبي أني بذلت فيه ما وسعني من جهد ووقت والله ولي التوفيق.

الباحث

التمهيد

لم أجعل التمهيد عرضاً تاريخياً لشعر الهجاء يبدأ بالعصر الجاهلي وينتهي عند شعراء الاندلس، لأن موضوع الهجاء وشعره وما جدّ فيه وما حصل فيه من تغيير مبسوط في كتب تاريخ الأدب العربي التي يمكن الوصول إليها بسهولة، ورأيت من العبث إعادة البحث فيما هو مقرر موجود، فأعرضت عن ذلك وحاولت أن أسلط الضوء في هذا التمهيد علي بعض المسائل والقضايا التي أثيرت حول الهجاء في الشعر الاندلس والتي لا يمكن إغفالها وتجاوزها.

لخص د. جودت الركابي مسيرة معاني شعر الهجاء في الاندلس بقوله: (أما الهجاء فلم تقم له سوق رائجة في الاندلس ولاسيما الهجاء السياسي لقلة الأحزاب السياسية، وقد ظهر في عهد الأمراء هجاء بين المضرية واليمانية ولكن لم يحفظ لنا منه شيء جدير بالاهتمام، وقد قام بعض الشعراء بهجو الفرنجة أثناء الحرب معهم، وهجو البرابرة عندما استفحل أمرهم، وكانت الغاية من الهجاء التكسب والمجون فلم يكن هناك هجاء سياسي بالمعنى المعروف عند المشارقة كالدفاع عن العرب وذم الشعوبية لأن الشعوبية لم يكن لها شأن في الاندلس) [١].

الحقيقة أن الاندلس عرفت الشعوبية في حقبة من حقب تاريخها وهي الحقبة التي حكم فيها الأمراء الأمويون: محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ – ٢٧٣هـ) والمنذر بن محمد (٢٧٣ – ٢٧٥هـ)، وعبد الله بن محمد (٢٧٥ – ٣٠٠ هـ) (فقد أخذ نشاط حركة القومية الأسبانية (عمر بن حفصون وبني قسي) [٢] بالازدياد وكانت ثورات المدن الاندلسية المختلفة تتوالى وكان الزعماء العرب يحسون بضعف السلطان فيستقل كل منهم بكورته ويتصرف تصرف الأمراء الفعليين فيقرب الشعراء ويكرمهم...) [٣].

ويشير د. حكمة الاوسي إلى هذا الموضوع في صفحات عديدة في كتابه فمن ذلك قوله: (ووصلتنا ابيات من قصائد طويلة تصور الصراع والتنافس العنصري بين العرب والمولدين في الاندلس، خلال هذه الفترة، ويبدو ان بعض هذه القصائد أشبه بالنقائض يفخر فيها الشاعر بقومه ويرد على شاعر أعدائهم وما وصمهم به في شعره، وربما كانت قصيدة الرد من نفس البحر والقافية) [٤].

وفي الصفحة ذاتها نقلاً عن المقتبس لابن حيان يقول: (ولدينا إشارة إلى قصيدة طويلة لسوار بن حمدون المحاربي القيسي زعيم العرب الثائرين على المولدين بكورة البيرة يفخر فيها بنفسه وقومه قيس ويهجو الأعداء يقول في أولها:

صرمَ الغواني يا هنيدةُ مودتى إذ شابَ مفرقُ لِمتي وقذالي) [٥]

والمسألة الثانية التي أردنا تناولها هي انصراف عدد من المؤرخين والكتاب عن إثبات الهجاء في مؤلفاتهم، وذلك لما فيه من فحش واقذاع (فابن بسام يتجنب تسجيله في كتاب الذخيرة لئلا يكون أحد الهجائين) [٦] ويعلل باحث سبب انصراف ابن بسام عن الهجاء فيقول

---

[١] في الادب الاندلسي. د. جودت الركابي: ص ١١٥.

[٢] عمر بن حفصون زعيم العجم: أكبر ثائر كاد يعجز الأمويين وقد دامت فتنته هو وأبناؤه اثنتين وخمسين سنة وكان يتحصن بمدينة ببشتر وإطاعه أكثر بلاد الموسطة بين رية والخضراء والبيرة، ولم يتمكن الأمويون من القضاء عليه إلا في زمن عبد الرحمن الناصر. أنظر تاريخ الأدب الاندلسي، عصر سيادة قرطبة: ص ٩٧.

[٣] فصول في الأدب الاندلسي. د. حكمة الاوسي: ص ٧٣.

[٤] م. ن: ص ٧٦.

[٥] فصول في الأدب الاندلسي: ص ٧٦،

[٦] الشعر في عهد المرابطين الموحدين بالاندلس. د. محمد مجيد السعيد: ص ٢٤٣.

(ويبدو أن ابن بسام قد صان ذخيرته من الهجاء لسببين: احدهما ديني والآخر شخصي فاما الأول فلان المجتمع الذي كان يعيش فيه كان للفقهاء فيه نفوذ كبير وسطوة واضحة فصان ذخيرته من الهجاء خوفاً من بطشهم به، كما كان لنشأته الدينية أثر في ذلك، إما الثاني: فلأنه كان يخشى من ذكر الهجاء في ذخيرته على نفسه من المهجوين إذا كانوا أحياء) [١].

(ويصرح المراكشي حينما يترجم لعلي بن حزمون بأنه تجنب إيداع هجائه في كتابه لأنه لا يستجيز أن ينقل عنه الاقذاع والفحش، ويهمل ابن الآبار ذكر شعراء هجائين في كتابه "تحفة القادم" لأنه يجد لهم شعراً سواه...) [٢].

وقد يكون الوازع الديني سبباً في أحجام بعضهم عن مزاولة الهجاء أو تدوينه في مؤلفاتهم باعتباره نوعاً من النميمة، فابن سعيد يذكر أنه عندما اشترك مع الشاعر إبراهيم بن سهل في أجازة بيت شعر في هجاء أبي الوليد إسماعيل بن حجاج الأفلح فان والده قام بتأنيبه على ذلك وقال له: (ما أبعد الفلاح من وجهك أما كفى إنك أدخلت روحك في النميمة بهجو الأعيان، حتى رضيت أن تكون زاملة ليهودي شاعر فاشتركت معه في الصفة بالهجو وأنفرد بحصول المعنى. فخجلت وأقسمت الا أعود إلى مثل ذلك) [٣]. وإذا كان الخوف من بطش المهجوين سبباً في احجام بعضهم عن ذكر الهجاء في مؤلفاتهم. وهو سبب مقبول – فأن أدعاء بعضهم أنه لا يريد نقل الفحش والاقذاع، وادعاء ابن بسام أنه لا يريد أن يكون أحد الهجائين. أقول إذا كانت هذه الادعاءات صحيحة فكيف سمح هؤلاء لأنفسهم بنقل شعر التغزل بالغلمان وهو في نظري واعتقادي أفحش من شعر الهجاء وأثمه أكبر لأنه يحط من كرامة الإنسان أولاً ولأن الشاعر المتغزل يشتهي المتغزل به جنسياً، فايهما أكثر إثما؟

وهناك قضية أخرى تتعلق بطبيعة أو صفة الهجاء الاندلسي أشار إليها أحد الباحثين المحدثين بقوله: (وكان يميل إلى العفة وعدم الإغراق في الفحش واستعمال بذيء الألفاظ وكان بمنأى عن ذكر العورات مخالفاً في هذا كله ما درج عليه شعراء العصر العباسي كالحجاج وابن سكرة وغيرهما) [٤].

وهذا الكلام بعيد عن الواقع ويخالف الحقيقة ويدل أن قائله قد أطلق هذا الحكم دون تثبت ودون الوقوف على جلية الأمر فيما يتعلق بشعر الهجاء الاندلسي وبما قاله غيره من الباحثين بهذا الخصوص. فشعر الهجاء الاندلسي فيه تطرف وفيه فحش واقذاع وذكر كثير للعورات وما يتصل بها من بذيء الألفاظ، وإليك ما قاله د. مصطفى الشكعة في هذا الشأن: (وشعراء الاندلس إذا هجوا أفحشوا وشاعراتهم أفحش من شعرائهم هجواً وهم مفحشون سواء استعملوا الألفاظ البذيئة أو استغنوا عنها... نقول ان في القوم تطرفاً في كل موضوع من موضوعات اشعارهم حتى أن ابن حزمون حين هجا نفسه كان أهجى من ألد أعدائه فيما لو كان هذا العدو من عباقرة الشعراء، انه على حد تعبير ابن سعيد صاعقة من صواعق الهجاء) [٥].

ويقول في موضع آخر (وفي مجال التطرف غلا بعض الشعراء في الهجاء حتى فاقوا رواد هذا الضرب من القول من ا لمشارقة) [٦].

---

[١] الأدب العربي في الاندلس، تطوره موضوعاته أشهر إعلامه. د. علي محمد سلامة: ص ٢٢٨.
[٢] الشعر في عهد المرابطين الموحدين بالاندلس: ص ٢٤٣.
[٣] اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى. لأبن سعيد علي بن موسى: ص ١٤٠ – ١٤١.
[٤] الأدب العربي في الاندلس تطوره موضوعاته وأشهر إعلامه: ص ٢٢٩.
[٥] الأدب الاندلسي موضوعاته وفنونه: د. مصطفى الشكعة: ص ٥٥.
[٦] م. ن: ص ١١.

ويقول د. محمد مجيد السعيد بعد أن ذكر عدداً من شعراء الهجاء في عصر المرابطين الموحدين: (وعند دراسة ما خلفه هؤلاء في هذا المجال نجد أن فن الهجاء فقد كثيراً من مقوماته المعروفة لدى نقاد العرب وتحول إلى مجموعة من ألفاظ السباب والفحش والاقذاع) [١].

وفي صدد حديثه عن المهاجاة التي دارت بين أبي بكر المخزومي ونزهون الكلاعي يقول: (وطالما دارت بينه وبين نزهون الكلاعي – معاصرته – معارك لسانية فاحشة مما يمكن أن يعتبر خلاصة الاقذاع والسب في معانيه وألفاظه حتى ليصل الأمر بينهما إلى التراشق بكلمات سوقية تافهة وبذلك يكون الهجاء قد فقد قيمته الفنية وأصبح مجرد شتائم قذرة تقاذفها السوقة وأسافل الناس) [٢].

إذن فالهجاء الاندلسي لم يكن يميل إلى العفة وعدم الإغراق في الفحش بل كان فيه فحش واقذاع وبذيء الألفاظ مما يتناول العورات ويتصل بها وهتك للأعراض وسنقف على كل ذلك عندما نعرض النصوص الشعرية.

بقيت مسألة أخيرة وهي أن الباحثين المحدثين عندما يتحدثون عن الهجاء ويستشهدون بأبيات شعرية فيها بعض الألفاظ البذئية أو التي تتصل بالعورات فأنهم يحذفون تلك الألفاظ أو يحذفون بيت شعر كامل كما فعل د. مصطفى الشكعة في الحكاية التي ذكرها حول ابن قزمان ونزهون بنت الكلاعي وما جرى بينهما من تراشق بكلام بذيء (لكن القوم تدافعوا حتى رموه في البركة وبعد خروجه من الماء قال: أسمع يا وزير وأنشد ثلاثة أبيات سوف نسقط الأوسط منها لفحشه ووصف نزهون بما تستحى الأذان من سماعة:

إيه أبا بكرٍ ولا حولَ لي بدفع أعيانٍ وأنذال
--- ---
غرَّقتني في الماء يا سيدي كفِّرهُ بالتغريق في المال) [٣].

والبيت الثاني المحذوف ورد في النفح ضمن الأبيات السابقة وهو[٤]:

وذاتِ فرجٍ واسعٍ دافقٍ بالماءِ يحكي حالَ أذيالي

كما حذف أربع كلمات كلمتان وردتا في المحاورة التي جرت بين المخزومي ونزهون الكلاعي وكلمتان وردتا في شعر قالته نزهون في هجاء المخزومي وذكر الباحث في الهامش قائلاً: كلمة بذيئة ليس من الضروري ذكرها، كلمة أخرى أكثر بذاءة تصنع سجعة مع الجملة السابقة[٥].

ولنا أن نتساءل هنا، هل أن، ورود مثل هذه الألفاظ في الحديث وفي شعر الهجاء من الأمور المستساغة والمعتادة والمتعارف عليها اجتماعياً في المجالس والمنتديات والمحاورات، أم أنها مرفوضة اجتماعياً وغير مستساغة وإن القوم قد تساهلوا في الأمر وأنهم انحدروا إلى مستويات متدنية في تصرفاتهم وفي مواضعاتهم الاجتماعية بحيث تدور تلك الألفاظ في محاوراتهم ومجادلاتهم وأحاديثهم ولا ينكرونها، وهل أن الكتاب والمؤرخين

---

[١] الشعر في عهد المرابطين والموحدين: د. محمد مجيد السعيد: ص ٢٤٤.
[٢] م. ن: ص ٢٤٥.
[٣] الأدب الاندلسي موضوعاته وفنونه: ص ١٦٥.
[٤] النفح: ٤/ ٢٩٧.
[٥] الأدب الاندلسي موضوعاته وفنونه: ص ١٦٢- ١٦٣.

المحدثين محقين في حذفهم الألفاظ والأبيات الشعرية التي ترد فيها الألفاظ الدالة على العورات وما يتصل بها؟

وما لنا نذهب بعيداً في أودية الأفكار بحثاً عن الجواب وقد أجاب عن المسألة شيخ أدباء العربية أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في كتابه الحيوان فقال: (وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر الحر والأير والنيك ارتدع وأظهر التقزز واستعمل باب الورع وأكثر مَنْ تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل المتصنع ولم يُكشف قطُّ صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستعمل ونذالة متمكنة... وقد كان لهم في عبد الله بن عباس مَقْنَع حين سمعه بعض الناس ينشد في المسجد الحرام:

وهُنّ يمشينَ بنا هميسا إن تصدقْ الطيرُ نَنكْ لميسا[١]

فقيل له في ذلك فقال: إنما الرفث[٢] ما كان عند النساء، وقال الضحاك: لو كان ذلك القول رفثاً لكان قطع لسانه أحب عليه من أن يقول هجراً[٣].

وقال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – حين دخل على بعض الأمراء فقال له: من في هذه البيوت؟ فلما قيل له: عقائل من عقائل العرب. قال علي: (مَنْ يطل أير أبيه ينتطق به) [٤]، فعلى علي – رضي الله عنه – يُعوَّل في تنزيه اللفظ وتشريف المعنى.

وقال أبو بكر – رضي الله عنه – حين قال بديل بن ورقاء[٥] للبني صلى الله عليه وسلم: جئتنا بعجرائك وسودانك ولو قد مس هؤلاء وخز السلاح لقد اسلموك! فقال أبو بكر – رضي الله عنه – عضضت ببظر اللات. وقد رووا مرفوعاً قوله: ((من يُعذِرُني من ابن أم سباع مقطعة البظور)) [٦].

يتبين لنا من النص السابق الذي ذكره الجاحظ وما تضمنه من أقوال الصحابة كعبد الله بن عباس، وعلي بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعاً.

يتبين لنا أن ذكر العورات في الكلام شيء لا غبار عليه ولا يؤاخذ عليه المرء وليس فيه ما يشين وأن ذلك مرهون بما تعارف عليه المجتمع، فعبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر لفظة (النيك) بشعر يترنم به في المسجد الحرام ولا يرى في ذلك بأساً ولم ينكر عليه أحد ذلك، وأبو بكر الصديق يذكر لفظة (البظر) في حضرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ذلك، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يذكر لفظة (الاير) ولم يتحرج من ذلك أيضاً.

---

[١] الهميس: همس الأقدام، أخفى ما يكون من صوت القدم. أنظر الصحاح، مادة همس لميس: اسم امرأة.

[٢] الرفث: الجماع، الفحش من القول. أنظر الصحاح: مادة: رفث.

[٣] الهجر: الأفحاش في المنطق، الخنا. أنظر الصحاح: مادة هجر.

[٤] ورد في حاشية الحيوان: ٣/ ٤٢ ما يلي: (قال الميداني في الأمثال: ٢/ ٢٢٨ (يريد من كثر أخوته اشتد ظهره وعزبهم).

[٥] بديل بن ورقاء: صحابي وكان من الرجال البارزين في يوم الفتح وبعده، أنظر حاشية الحيوان: ٣/ ٤٢.

[٦] الحيوان: ٣/٤٠ - ٤٢.

المبحث الأول

الهجاء الاجتماعي:

يأخذ الهجاء الاجتماعي (غالباً صفة التشهير بين شاعر وأخر أو بينه وبين أحد خصومه، فتغلب سمة الذاتية فلا يمثل موقفاً عاماً... وشعر الهجاء الاجتماعي مقطعات في معظمة تنظم بأسلوب بسيط واضح ليسهل فهمها من قبل الآخرين، وليكون وقعها في النفوس أشد وأثرها أبعد، وقد تعمد اللوحات (الكاريكاترية) القائمة على تضخيم الأشياء أو إبداء التناقض فيها وتجسيمه لتثير الضحك) [١].

ومعاني شعر الهجاء الاجتماعي تتعلق غالبيتها بما يأتي:

(خلق المهجو وشرفه وسلوكه أو بخلع صفات الجبن والفرار عليه، أو بوسمه بالقبح والبخل، إلى ما هنالك من أوصاف معيبة تغض من قدر صاحبها وتقلل من شأنه ومكانته) [٢].

وما وصل إلينا من شعر الهجاء قبل عصر الطوائف قليل اما في عصر الطوائف فقد كان مجال الهجاء واسعاً ولكن ابن بسام وهو المؤرخ الأدبي الأول لهذه الحقبة تذمم من ادراج أشعار الهجاء في كتابه ولذلك فأن صورة الهجاء لا تعد مستوفاة أو واضحة[٣].

(ولما انتهت أيام الطوائف وجاء عهد المرابطين أشتد النقد الاجتماعي لسببين: إن قدوم المرابطين أنفسهم إلى الأندلس لم يلبث أن أصبح عبئاً على الاندلسيين فكانت مقاومتهم لذلك تتمثل في بعض جوانبها بالنقد والتندر بأصحاب اللثام وكذلك أرتفع شأن الفقهاء في أيامهم فاقبل الشعراء على ذم الفقهاء، واتهامهم بالرياء لأنهم أصبحوا يجرون عليهم الدنيا متسترين وراء المظهر الديني) [٤].

والهجاء الاجتماعي في غالبيته هجاء شخصي (فقد كان مثارة هذه المنازعات الفردية والخلافات التي تنشأ من احتكاك الناس وتعارض مصالحهم... فالهجاء هنا سجل ساذج لمعركة بين فردين يتشاتمان ترى فيه كل ألوان العنف الذي يصحب مثل هذه الظاهرة، فيه الاستعلاء على الخصم بكل شيء... وفيه السباب المقذع في كثير من الأحيان والذي يتعرض لأغلظ العورات دون احتشام وفيه التعيير والتهديد) [٥].

فمن الشعراء الذين خاضوا في هذا اللون من الهجاء والذي عاش في حقبة متقدمة من حياة المسلمين في الاندلس الشاعر أبو المخشي عاصم بن زيد الذي كان جسوراً على الأعراض ويذكر صاحب المغرب (أن أياه دخل الاندلس من المشرق مع جند دمشق فنزل بقرية شوش ونشأ أبنه على قول الشعر واشتهر به إلا أنه كان جسوراً على الأعراض فقطع لسانه هشام بن عبد الرحمن سلطان الاندلس وأنجبر قليلاً واقتدر على الكلام وكان الشعراء يطعنون في نسبه بالنصرانية ولما قال فيه ابن هبيرة:

اقلفُكَ التي قطُعتْ بشوش دَعتكَ إلى هجائي وانتضالي

فأجابه بقوله:

سألتَ وعند أمكَ من ختاني بيانٌ كان يشفي من سؤالي

---

[١] الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ٢٤٣ – ٢٤٤.

[٢] م. ن ص ٢٤٤.

[٣] أنظر تاريخ الأدب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين. د. أحسان عباس: ص ١٣٩.

[٤] م. ن ص ١٤٣.

[٥] الهجاء والهجاؤون في الجاهلية. د. محمد حسين ص: ٩٥.

فغلب عليه) [١].

فابن هبيرة يعير ابا المخشي بأنه نصراني وأنه لم يتختتن إلا بعد أن سكن قرية شوش وأن ذلك الأمر دعاه إلى مهاجاته ومفاخرته، فيرد عليه أبو المخشي رداً موجعاً مؤلماً طاعناً إياه بشرف أمه وعفتها فيقول له: إن أمك عندها الخبر اليقين عن ختناني لأنه كان يباشرها ولو سألتها لوجدت عندها الجواب الشافي.

ومن الشعراء المتقدمين مؤمن بن سعيد بن إبراهيم بن قيس (ت ٢٦٧هـ) قال عنه الحميدي (أنه كثير الشعر ولكن لم يصلنا إلا مقطعات قليلة منه وأقل ما تبقى من شعره هو الهجاء فنه الذي كان ظاهراً فيه على معاصريه من الشعراء وقد كان هو والغزال مسلطين على هجاء زرياب[٢]، وربما كان ذلك غيرة مما ناله ذلك المغني من حظوة لدى صاحب السلطان فمن أهاجية فيه قوله:

تبارك مَنْ أذل الخزَّ حتى تمعَّك فيه أفواهُ الكلاب[٣]
ومَنْ جَعلَ الغوالي سائلات على اصداغ أسودَ كالغراب[٤].

ان مؤمن بن سعيد تأخذه الغيرة من رؤية زرياب ذلك المغني الذي جاء متشرداً فاراً من غضب أستاذه ويؤلمه أن يراه يتمرغ في النعيم ويحزنه أن يراه ضمن حاشية الأمراء الأمويين يتقلب في خيرهم ونعيمهم الذي أفاضوه عليه، لذلك فهو ينزه الخالق سبحانه وتعالى الذي جعل الحرير ذليلاً مهاناً بحيث يرتديه زرياب – كان زرياب أسود اللون – وكذلك ينزهه سبحانه الذي جعل الغوالي (العطور) الثمينة في متناول زرياب بحيث تسيل على أصداغه، فهو يستكثر ذلك على ذلك الأسود المتشرد ا لذي حاز تلك ا لمنزلة الرفيعة في قصور الأمراء الأمويين[٥].

وكذلك نشأت بين مؤمن بن سعيد وبين عباس بن فرناس مهاجاة أفحش فيها الاثنان[٦].

أما الشاعر أحمد بن محمد بن عبد ربه (ت ٢٣٨هـ) فقد أثر عنه أنه (حين مطله أحد الناس تخصص في هجائه لتلك الحادثة وحدها وقال فيها قطعاً كثيرة من الشعر أثبتها في العقد فتلك النفسية هي التي كان يرى بها الحياة خالية من كل خير وأن من فيها كلاب.

وأيامٍ خَلتْ من كل خير ودنيا قد تَوزعَها الكلابُ
كلابٌ لو سألتهم تراباً لقالوا عندنا أنقطعَ التراب[٧].

فالشاعر ينظر الى الحياة نظرة سوداء متشائمة فلا يرى فيها خيراً وأن الكلاب – من الناس – قد حازوا منافعها وهم يبخلون بأبسط شيء حتى لو سألتهم التراب لقالوا نفد التراب.

والشاعر يكرر هذا المعنى مرة أخرى فالناس بخلاء وهم كالحجارة صم صلاب فيقول[٨].

---

[١] المغرب: ٢/ ١٢٣.

[٢] زرياب: اسمه أبو الحسن علي بن نافع توفي حوالي (٢٣٨هـ) أبدى من المهارة في حضرة هارون الرشيد ما جعله يحصل على حضوة كبيرة عنده أثارت حسد أستاذه إسحاق فرأى زرياب أن من الأوفق له أن يخرج عن العراق فتوجه إلى المغرب هرباً من غضب أستاذه. ومعنى زرياب طائر أسود غَرد. أنظر النفح: ٣/ ١٢٢ – ١٢٥.

[٣] معك: معك معكا الشيء، دلكه، معكه فتمعك: مرغه فتمرع. أنظر اللسان مادة معك.

[٤] الجذوة: ص ٣٥٢.

[٥] أنظر. المغرب ١/ ٣٣٣.

[٦] م. ن.

[٧] تاريخ الأدب الاندلسي - عصر سيادة قرطبة: ص ١٩٨.

[٨] العقد الفريد: ٢٩٢/١

حجارةُ بخلٍ ما تجودُ وربما تفجَّر من الحجارة ماء
ولو أن موسى جاء يضربُ بالعصا لما انبَجَستْ من ضربه البُخلاء

والشاعر هنا يقتبس معنيين من آيتين كريمتين فالبيت الأول اقتبس معناه من قوله تعالى (ثم قست قلوبكم فهي كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) البقرة. ٧٤.

أما المعنى الثاني فقد اقتبس معناه من قوله تعالى (فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه أثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم) البقرة. ٦٠.

فهؤلاء القوم بخلاء وقد قست قلوبهم فهي صلابتها كالحجارة الصلدة وإذا كانت عصا موسى عليه السلام قد أفلحت في تفجير الماء من الحجر فأنها لا تفلح في تفجير ينبوع الخير والعطاء في نفوس هؤلاء البخلاء.

ومن المعاني التي تناولها الشعراء في هجائهم (سوء الخلق والنفاق) فالشاعر محمد بن الحسين الطبني[١] يقول في هجاء شخص[٢].

ووغدٍ إن أردتُ له عقاباً عفا عن ذنبه حسبي وديني
يؤنِّبني بغيبةٍ مستطيل ويلقاني بوجه مستكينِ
ولولا الحلم – إن له لجاما - لداس الفحلُ بطن ابن اللبون
وقالوا هجاكَ فقلتُ كلبٌ عوى جهلاً إلى ليثِ العرين.

يقول ان هذا الوغد الأحمق الضعيف العقل الذي إذا كنت غائباً عن مجلسه أخذ يؤنبي (يلومني، يوبخني، يعنفني) وهو مستطيل (يذكر تفضله علي وتعاليه فوقي) وإذا اتفق أن كنت معه في مجلس واحد أقبل عليّ يتقرب إليّ بذلة وخضوع، ونقل إليه بعضهم أنه هجاه فأجابه كلب عوى إلى ليث العرين[٣].

أما الشاعر خلف بن فرج الالليبري السميسر[٤] فأكثر شعره في الهجاء تعميمي المنزع يدل على قلق وعدم ارتياح لبعض ما يراه من أوضاع فمن ذلك قوله[٥]:

خِنتم فهنتمْ وكم اهَنتمْ زمانَ كنتم بلا عيون
فأنتم تحتَ كُل تحتٍ وأنتم دون كل دون
سكنتم يا رياحَ عاد وكلُ ريح الى سكون

فهؤلاء القوم ذلوا وهانوا بعد خيانتهم لأنهم كانوا لا ينظرون بعيداً ولا يبصرون عواقب أعمالهم فانحدروا إلى الحضيض وقد كانوا كريح عاد ما أتت على شيء إلا أهلكته قال تعالى: (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) الذاريات: ٤١ – ٤٢، وقال تعالى: (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) الحاقة: ٦، ولكنهم الآن سكنوا لان كل ريح مصيرها السكون.

ويجري على هذا النسق من التشفي قوله[٦]:

---

[١] محمد بن الحسين التميمي الحماني الطبين الزابي، وطبنة بلد من أرض الزاب بعدوة الاندلس شاعر مكثر واديب متفنن ومن بيت أدب وشعر وجلالة ورياسة ولد سنة (٣٠٠هـ) في طبنة وأنتقل إلى الاندلس سنة (٣٣١هـ) سكن قرطبة توفي سنة (٣٨٤هـ). أنظر الجذوة: ص ٥٠، تاريخ الأدب العربي. د. عمر فروخ: ٤/ ٣٢٢.

[٢] الجذوة: ص٥٠

[٣] أنظر تاريخ الأدب العربي. د. عمر فروخ: ٤/ ٣٢٢.

[٤] السميسر خلف بن فرج الالليبري من أعلام شعراء البيرة مدة ملوك الطوائف كان كثير الهجاء مشهوراً به له كتاب سماه (شفاء الأمراض في أخذ الأعراض) أنظر. المغرب٢/ ١٠٠، النفح، ٤/ ١٠٨.

[٥] النفح، ٤/ ١٠٨.

[٦] م. ن

وليتم فما أحسنتم مذوليتم ولا صنتم عمن يصونكم عرضا
وكنتم سماءً لا يُنال منالها فصرتهم لدى مَنْ لا يسائلكم أرضا
ستسترجعُ الأيامُ ما أقرَضتكم ألا انها تسترجعُ الدينَ والقرضا

فهؤلاء يشبهون من سبقهم فلم يحسنوا التصرف في ولايتهم ولم يصونوا عمن صانهم عرضاً وكانوا في عزة ومنعة لا تطال ولكنهم أصبحوا الآن أذلاء كأرض تدوسهم الأقدام. ويقول السميسر أيضاً[١].

تحفظْ من ثيابكَ ثم صُنها وإلا سوفَ تلبسها حدادا
وظُنَّ بسائر الأجناس خيراً وأما جنس آدم فالبعادا
ارادوني بجمعهم فرُدوا على الاعقاب قد نكصوا فُرادا
وعادوا بعد ذا أخوان صدق كبعض عقارب عادت جرادا

فالشاعر سيء الظن بالناس ويتوقع الخير من كل المخلوقات إلا بني آدم فيدعو إلى الابتعاد عنهم لأنهم أرادوا به كيدا فخاب سعيهم ونكصوا على أعقابهم وبعد أن كانوا كالعقارب في عداوتهم عادوا كالجراد لا ضرر منهم ولا يخشى شرهم.

ومن معاني الهجاء تشبيه المهجو بالكلب كما فعلت ذلك الشاعر عائشة بنت أحمد القرطبية[٢] (ت ٤٠٠ هـ) إذ خطبها أحد الشعراء ممن لم ترضه فكتبت إليه[٣].

أنا لبوةٌ لكنني لا أرتضي نفسي مُناخاً طُول دهري من أحد
ولو أنني أختار ذلك لم أُجب كلباً وكم غلَّقتُ سمعي عن أسد

فالشاعرة هنا تأنف من الزواج فهي شديدة صعبة القياد كاللبوة ولا ترضى لنفسها أن تكون طول دهرها تحت زوج ولو اختارت ذلك الأمر فأنها لا تقبل الزواج من كلب (الشاعر الذي تقوم لخطبتها) وكم أعرضت وأغلقت مسامعها عمن تقدم إليها من رجال كالأسود.

ومن شاعرات الاندلس اللواتي ترددت معاني الهجاء الفاحشة في شعرهن الشاعرة مهجة بنت التياني القرطبية[٤] من شاعرات القرن الخامس الهجري، (على أن هذه الشاعرة على جودة شعرها كانت من الخلاعة في القول والفحش في الشعر ما جعلها تذهب في تعبيرتها مذاهب تنال من عفة قائلتها وبخاصة ولعها بذكر عورات الرجال في شعرها وهي لا تتورع النيل من ولادة مستغلة طبيعة الاسم، فمعنى لفظ ولادة المرأة الكثيرة الإنجاب، ولكن الأميرة ولادة لم تتزوج في حياتها وماتت بعد الثمانين من عمرها عذراء غير أن مهجة السليطة اللسان البذيئة الشعر تهجو ولادة مستوحية معاني الهجاء من معنى الاسم) [٥]. تقول الشاعرة مهجة القرطبية في هجاء ولادة[٦]:

ولّادة قد صرتِ ولّادة من غير بعل فُضحَ الكاتم
حَكتْ لنا مريمَ لكنهَ نخلة هذي ذكرٌ قائم

---

[١] المغرب: ٢/ ١٠٠.

[٢] عائشة بنت أحمد القرطبية: (لم يكن في زمانها من حرائر الاندلس من يعد لها علماً وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحة تمدح ملوك الاندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف وماتت عذراء لم تنكح سنة أربعمائة) الصلة: ٢/ ٦٥٤.

[٣] النفح: ٤/ ٢٩٠.

[٤] مهجة بنت التياني القرطبية: (من المسهب: إن أباها كان يبيع التين وكانت هي تدخل عند ولادة بنت المستكفي الشاعرة، وكانت من أجمل نساء زمانها وأخفهن روحاً فعلقت بها ولادة ولزمت تأديبها إلى أن صارت شاعرة) المغرب: ١/ ١٤٣.

[٥] الأدب الاندلسي موضوعاته وفنونه: ص ٢١٤.

[٦] المغرب: ١/ ١٤٣.

والشاعرة هنا تقتبس معاني قصة مريم العذراء عليها السلام في هجائها قال تعالى: (قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا. قالت: أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله أية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا، فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا) مريم ١٩ – ٢٣. وقوله تعالى: (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) مريم: ٢٥.

المعروف عن ولادة بنت المستكفي أنها لم تتزوج ولم تنجب ولكن صديقتها الشاعرة مهجة القرطبية تتهمها زوراً وبهتاناً بأنها أصبحت كثيرة الإنجاب وقد فضح ما كان مكتوماً وهي بذلك تشبه مريم العذراء التي أنجبت من غير زواج بمشيئة الله وقدرته وعندما ألجأها المخاض إلى جذع النخلة خاطبها تعالى (وهزي إليك بجذع النحلة تساقط عليك رطباً جنيا) مريم: ٢٥، أما نخلة ولادة فهي ذكر قائم. (غير أن فحش القول عند مهجة القرطبية لم يكن قاصراً على الهجاء بل كان يجري علي لسانها سليقة وطبعاً وكانت في فحشها تستعمل الألفاظ البذيئة وأسماء عورات الرجال، فقد أهدى إليها واحد من أصدقائها هدية من الخوخ فتوقعنا أن نسمع منها تعليقاً عذباً ووصفاً رقيقاً لتلك الفاكهة اللذيذة الطعم الباهرة اللون الجميلة المنظر) [١]، فردت عليه ببيتين من الشعر أولهما رقيق المعنى أما ثانيهما فأنه فاحش اللفظ بذيء المعنى فقالت[٢]:

يا مُتحفاً بالخوخ أحبابَه أهلاً به من مُثلجٍ للصدور
حكى ثُديّ الغيد تفليكُه لكنه أخزى رؤوسَ الأيور

ومن المعاني التي تناولها الشعراء في هجائهم سوء الخلق واختلاف المظهر عن المخبر من ذلك قول أبن اللبانة[٣] (ت ٥٠٧هـ) يهجو رجلاً أسمه ابن السيد[٤]:

يروقُك في أهل الجمال ابنُ سيدٍ كترجمةٍ راقتْ وليس لها معنى
حكى شجَرَ الدفلاءِ حسناً ومنظراً فما أحسنَ المجلى وما أقبحَ المجنى

ومن شاعرات الاندلس اللواتي دارت معاني الهجاء الفاحش وذكر العورات في شعرهن ولادة بنت المستكفي (ت ٤٨٤هـ) (لم تكن ولادة شاعرة غزل وحسب وإنما كانت هجاءه مريرة الهجاء ربما فاقت بعض الهجائين من الرجال فضلاً عن النساء... أما ولادة فلم تجر صفة الهجاء مرتبطة باسمها أو بشعرها ومع ذلك فهي أهجى من نزهون بل إنني لا أتردد في أن أجعلها فيما قالت من هجاء – على ندرته – أهجا من حماد عجرد وهو يهجو بشار بن برد...) [٥].

هجت ولادة الشاعر الذي أحبها وقال فيها أرق الشعر وأعذبه وكان حبه لها سبباً مباشراً من أسباب نكبته وتشرده فوصفته بأبشع الألفاظ وقالت فيه أفحش ما يقال ولقبته بالمسدس وفيه تقول[٦]:

---

[١] الأدب الاندلسي موضوعاته وفنونه: ص ٢١٥.
[٢] النفح: ٤/ ٢٩٣.
[٣] أبن اللبانة: أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني ولد في مدينة دانية ونسب إلى أمه التي كانت تبيع اللبن كان شاعراً يتصرف وقادراً لا يتكلف وهو من شعراء المعتمد ابن عباد توفي سنة (٥٠٧هـ) أنظر المغرب: ٢/ ٤٠٩، وتاريخ الأدب العربي. د. عمر فروخ: ٥/ ٨٢.
[٤] المغرب: ٢/ ٤٠٩ - ٤١٠.
[٥] الأدب الاندلسي موضوعاته وفنونه: ص ١٨٦.
[٦] النفح: ٤/٢٠٥ - ٢٠٦.

ولُقّبت المسدس وهو نعتٌ ثُفارقك الحياةُ ولا يُفارق
فلوطي ومــأبون وزان ديوث وقرنان وسـارق[١]

وقالت فيه:

إن ابن زيدون على فضله يغتابُني ظلماً ولا ذنبَ لي
يلحظُني شزراً إذا جئتُه كأنني جئتُ لأخصي علي[٢]

وقالت فيه أيضاً:

ان ابن زيدون على فضله يعشقُ قضبانَ السراويل
لو أبصرَ الايرَ على نخلة صارَ من الطير الأبابيل

فهل بقي للهجاء موضع بعد هذا الكلام؟ وهل هناك ألفاظ أكثر فحشاً وبذاءة من هذه الألفاظ؟ وهل يصدق إنسان أن هذا الهجاء يصدر عن فتاة وأن تلك الفتاة ابنة الخليفة المستكفي؟

وقالت ولادة تهجو الاصبحي[٣]:

يا أصبحيُ أهنا فكم نعـمة جاءتك من ذي العرش ربِّ المِنن
قد نلتَ بأست ابنك ما لم ينلْ بفرج بورانَ أبوهـا الحسـن[٤]

ومن الهجاء ما كان يجري في مجالس العلية من أهل الاندلس وكانت تجري مساجلات هجائية فاحشة كالمساجلة الهجائية الحامية التي حدثت في مجلس الوزير أبي بكر بن سعيد بين المخزومي الأعمى[٥] ونزهون[٦] بنت القلاعي والتي دارت فيها أفحش معاني الهجاء وعلى مرأى ومسمع من القوم، ذلك أن المخزومي قدم على غرناطة أيام ولاية أبي بكر ابن سعيد فوجه له الوزير عبداً صغيراً قاده (فلما استقر به المجلس وافعمته روائح الند والعود والأزهار وهزت عطفه الأوتار قال:

دارُ السعيدي ذي أم دارُ رضوان ما تشتهي النفسُ فيها حاضرٌ داني
سقت أباريقها للند سُحبُ نـدى تُحدى برعـدِ لأوتارٍ وعيــدان
والبرقُ من كل دنٍ ساكبٌ مطراً يحيا به مَيْتُ أفكـار وأشجــان
هذا النعيمُ الذي كنـا نحــدثهُ ولا سبيـلَ لـه إلا بــآذان

فقال له أبو بكر بن سعيد: وإلى الآن لا سبيل له إلا بآذان؟ فقال: حتى يبعث الله ولد زنى كلما أنشدت هذه الأبيات قال: أن قائلها أعمى، فقال: أما أنا فما أنطق بحرف فقال: من صمت نجا. وكانت نزهون بنت القلاعي حاضرة فقالت: وتراك يا أستاذ قديم النعمة بمجمر ند وغناء

---

[١] مأبون: أبنه بشيء: أتهمه به، مأبون، متهم الصحاح مادة: ابن ديوث: القنذع، وهو الذي لا غيره له. أنظر الصحاح مادة: ديث القرنان: منارتان تبنيان على رأس البئر ويوضع فوقهما خشبة فتعلق البكرة فيها: الصحاح: قرن.

[٢] علي: علام لأبن زيدون.

[٣] النفح: ٢٠٦/٤.

[٤] بوران: هي زوجة الخليفة العباسي المأمون ومما (يروى عن زواج المأمون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل فقد أنفق فيه ما يفوق أغرب القصص الخيالية... وأعطى المأمون بوران ألف ياقوتة وأوقد لها شموع العنبر وبسط لها حصيراً منسوجاً بالذهب مكللاً بالدرر والياقوت..) تاريخ لأدب العربي، العصر العباسي الأول. د. شوقي شيق ص ٤٨ – ٤٩ نقلاً عن الطبري ٧/ ١٨٧ واليعقوبي ٣/ ١٨٦.

[٥] المخزومي: أبو بكر محمد الأعمى المخزومي الغرناطي (ت ٥٤١هـ) قال فيه ابن سعيد نقلاً عن المسهب (بشار الاندلس إنطباعاً ولسنا وأذاة وهو الذي أحيا سيرة الحطيئة بالاندلس فمقت وكان لا يسلم من هجوه أحد... وأصله من المدور وقرأ بقرطبة... وأكثر الإقامة في غرناطة وتعرض لشاعرتها نزهون وهجاها) المغرب: ١/ ٢٢٨.

[٦] نزهون بنت القلاعي: من شاعرات القرن الخامس الهجري تنسب إلى غرناطة فيقال نزهون الغرناطية شاعرة ماجنة كثيرة النوادر، كانت تراسل الرجال شعراً وتساجلهم نظماً وتهاجيهم قولاً فاحشاً. أنظر: المغرب: ١/ ١٢١، النفخ: ١/ ١٩١ – ١٩٣.

وشراب فتعجب من تأتيه وتشبهه بنعيم الجنة وتقول ما كان يعلم إلا بالسماع ولا يبلغ إليه بالعيان؟ ولكن من يجيء من المدور وينشأ بين تيوس وبقر من أين له معرفة بمجالس النعيم؟ فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى، فقالت له ذبحة، فقال: مَنْ هذه الفاضلة؟ فقالت: عجوز مقام أمك فقال: كذبت ما هذا صوت عجوز، إنما هذه نغمة قحبة محترفة تشم روائح هنها على فراسخ، فقال له أبو بكر: يا أستاذ هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرة الأديبة. فقال: سمعت بها، لا أسمعها الله خيراً ولا أراها ألا ايراَ ً. فقالت له يا شيخ سوء تناقضت وأي خير للمرأة مثل ما ذكرت؟ ففكر ساعة ثم قال:

على وجه نزهون من الحسنِ مسحةٌ وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا
قواصدُ نزهون توارثُ غيرها ومَنْ قَصَد البَحر استقلَّ السواقيا

فاعملت فكرها ثم قالت:

قل للوضيع مقالاً يُتلى إلى حين يُحشَر
من المدوَّر أنشِئـ ت والخرا منة أعطر
حيثُ البداوةُ أمست في مشيها تَتَبختَر
لذاك أمسيتَ صباً بكل شيء مُدوَّر
خُلقتَ أعمى ولكن تهيمُ في كل أعور
جازيتُ شعراً بشعر فقل لعمري مَنْ أشعرْ
إن كنتُ في الخلق أنثى فأن شعري مُذكَّر

فقال لها اسمعي:

ألا قل لنزهونةٍ ما لها تجرُّ من التِيه أذيالها
ولو أبصرتْ فيشةٌ شمَّرتْ - كما عودتني – سربالها[1]

فحلف أبو بكر بن سعيد ألا يزيد أحدهما على الأخر في هجوه كلمة)[2].

والمخزومي هذا كان صاعقة من صواعق الهجاء لم يسلم من هجوه أحد فابن سعيد صاحب المغرب يذكر نقلاً عن جده عبد الملك بن سعيد أنه (كان كثير الإحسان له مستحفظاً من لسانه وبعد ذلك لم يسلم من أذاته، ومن خبره معه: أنه قصده مرة وهو بقلعته فأنزله وتلقاه ببر قولاً وفعلاً، ثم أنه قال لغلام له: اسأل في الموضوع الذي نزل فيه المخزومي متى يرحل؟ وكان غرضه أن يرسل له زاداً وينظر ما يركب عليه فأساء الغلام التناول، وضرب عليه بابه فخرج له الأعمى. فقال: يقول لك القائد متى ترحل؟ فقال: ارفق أكتب لك الجواب فكتب له أبياتاً منها:

لا ترجونَّ بني سعيد للندى فالظلُ أفيدُ منهم للسائل
فلقد مررتُ على منازلهم فما أبصرتُ منها غير بُعد منازل
قوم مُصيبتهم بطلعةِ وافدِ وسرورُهم أبداً بخيبةِ راحل

وفيهم يقول وقد أسكنوه جوارهم:

أبني سعيد قد شَقيتُ بقربكم فلتترُكوني حيثُ شئتُ أسير
أفني المدائحَ فيكم لا وعدُكم يُقضى وقلبي في المِطال أسير
أعطيتمُ نزراً على طول المدى ويقولُ وغدٌ: إنه لكثير
ولشدَّ ما عرَّضتموني للعنا فرسٌ عتيقٌ عاشَرَتْه حمير

---

[1] فيشة: الفيش والفيشة: رأس الذكر. أنظر الصحاح مادة: فيش.
[2] النفح: ١/ ١٩١ – ١٩٣، المغرب: ١/ ٢٢٨ – ٢٣١.

فإذا صهلتُ غدا النُهاقُ مُجاوبي يا ربِّ أنت على الخلاص قدير) [١].

فالمخزومي في أبياته السابقة يهجو بني سعيد الذين آووه وأحسنوا إليه وقاموا بواجب ضيافته وكانوا يتطلعون إلى المزيد في أمور خدمته وقراه ولكنه أساء فهمهم فهجاهم بالبخل وأنهم يحزنون إذا حل بهم ضيف ويفرحون برحيله خائباً وأنهم يستكثرون ما يقدمونه للضيف على قلته ويبالغ في الإساءة إليهم فيصف نفسه بأنه فرس عتيق وهم كالحمير، ثم يرفع يديه بالدعاء للخلاص منهم.

والمخزومي كالحطيئة هجا نفسه وذلك على لسان إحدى الفتيات اللواتي رام وصلهن فتندرت به ونعتته بالقرد وفيها يقول[٢]:

رُبَّ حسناء كالغزلة جيداً والتفاتاً تُزري بحور الخلود
كلَّمتني فطارَ قلبي إليها وترجيتُ للظلماء ورودي
فتجافَتْ عن منظري ثم قالت أترى الحورَ واصلات القرود
لم ألمها على الصدود لأني كنتُ أهلاً من مثلها للصدود

وكذلك هجا ولده بكل الصفات الذميمة فهو بعيد عن الفلاح وعن كل فضيلة وبعيد عن الصلاح وأن عقله يزداد تناقصاً كلما تقدمت به السن وكل همه في الحياة الأكل والسلح وفي ذلك يقول[٣]:

الحقُ أبلجُ ليس أنتَ وحقِّ مَنْ أحيا بك الاجلافَ ممن يُفلح
لا تهتدي بفضيلة لا ترعوي بملامة لا أنت ممن يَصلُح
يزدادُ عقلك ما كبرت تناقصاً وتلجُ في صمم إذا ما تُنصح
أكلٌ وسلحٌ كل حين لا تُرى لسواهما ما دمت حيا تطمح
أسخنتَ عينَ المجد يا ابن عميرة ولقد تقرُّ عيونه لو تُذبحُ

والمخزومي هذا ممن فخر بهم أبو الوليد الشقندي في رسالته في الدفاع عن الاندلس عندما جرى النزاع بينه وبين أبي يحيى بن المعلم الطنجي في مجلس صاحب سبتة أبي يحيى بن المعلم الطنجي في التفضيل بين البرين، يقول الشقندي: (وهل منكم من هجا من غير النطق باقذاع فبلغ ما لم يبلغه المقذع وهو المخزومي في قوله:

يودُّ عيسى نزولَ عيسى عساهُ من دائه يُريحُ
وموضعُ الداء منه عضوٌ لا يرضى مَسَّه المسيح

ولما اقذع أتي أيضاً بأبدع فقال:

يا فارسَ الخيل ولا فارسَ إلا على متن جواد الخِصَى
زدتَ على موسى وآياته تُفجِّر الماء وتُخفي العصا) [٤]

والمخزومي هنا يقتبس معنى قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن أضرب بعصاك الحجر فانبجست منه أثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم) الأعراف ١٦٠، وإذا كانت عصا موسى عليه السلام ظاهرة للعيان عندما ضرب الحجر فتفجر منه الماء فأن المهجو يفجر الماء ويخفي العصا، فهو من الذين يسجدون لغير صلاة.

ومن هجائه المقذع مما سترت معانيه قوله[١]:

---

[١] المغرب: ١/ ٢٣٠.
[٢] م. ن: ١/ ٢٣١.
[٣] م. ن: ١/ ٢٢٩.
[٤] النفح: ٣/ ٢٠٥.

زَنجيكم بالفسوق داري يُدلي من الحرص كالحمار
يخلو بنجل الوزير سراً فيولجُ الليلَ في النهـــار

والبيتان فيهما إفحاش ومعناها واضح وفيهما كناية فالليل كناية عن الزنجي والنهار كناية عن نجل الوزير والشاعر هنا يقتبس معنى قوله تعالى: (تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج من الميت من الحي...) آل عمران: ٢٧.

والملاحظ في هذا الهجاء وفي هجاء بقية شعراء الاندلس كثرة اقتباسهم معاني آيات القرآن الكريم وتوظيفها في معاني الهجاء الفاحشة وللآيات القرآنية حرمتها وللقرآن الكريم قدسيته ولا يجوز للشاعر التجاوز عليها واقتباس معانيها بهذه الصورة المشينة البعيدة عن الخلق الإسلامي ليصل من خلالها إلى المعنى الذي يريده.

ولم يكن موقف نزهون مع المخزومي هو الموقف الوحيد الذي تراشقا فيه سهام الهجاء بل لها موقف أخر مع الشاعر ابن قزمان[٢]. وقيل عنها أنها (كانت شاعرة بارعة إلى الحد الذي تواجه فيه كبار الشعراء وتهاجيهم، ولكن يبدو أنها لم تكن سوية التكوين لان ما قيل في مواجهتها مرات عديدة من وصف بالفحش وهجاء يتأذى منه الحياء لم يضع لمسلكها حداً، أنها من ناحية الشعر شاعرة ولكنها من ناحية الحياة ماجنة مجوناً فاحشا بحيث لم يركب مركبها من شاعرات الاندلس الكثيرات الاقلة لا تكاد تعد على أصابع يد واحدة) [٣].

والذي يدل على صحة هذا الكلام مواقفها الجريئة مع شعراء عصرها وتحرشها بهم وإثارتهم بسخريتها وتهكمها وإليك ما يرويه المقري نقلاً عن ابن سعيد (لما وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة واجتماعه بجنته بقرية الزاوية بنزهون القلاعية الأديبة وما جرى بينهما وأنها قالت له بعقب ارتجال بديع – وكان يلبس غفارة صفراء على زي الفقهاء حينئذ – أحسنت يا بقرة بني إسرائيل، إلا أنك لا تسر الناظرين فقال لها: إن لم أسر الناظرين فأنا أسر السامعين، وإنما يطلب سرور الناظرين منك يا فاعله يا صانعة، وتمكن السكر من ابن قزمان، وآل الأمر إلى أن تدافعوا معه حتى رموه في البركة فما خرج إلا وهو قد شرب كثيراً من الماء وثيابه تهطل فقال اسمع يا وزير ثم أنشد[٤]:

ايه أبا بكر ولا حولَ لي بدفع أعيانٍ وأنذال
وذاتِ فرجٍ واسعٍ دافقٍ بالماءِ يحكى حالَ أذيالي
غرَّقتني بالماء يا سيدي كفِّره بالتغريق في المال

فهذا الهجاء الفاحش ما كان يقوله ابن قزمان لولا سخرية نزهون منه وتندرها به.

ومن الهجاء الساخر الذي يحط من قدر المهجو ما نلاحظه عند الشاعر أبو بكر إليكي[٥] فهو يقول في أحدهم[٦]:

---

(١) المغرب: ١/ ٢٣١.

(٢) ابن قزمان: محمد بن عيسى ابن عبد الملك بن قزمان الأصغر (ت ٥٥٥هت) إمام الزجالين بالاندلس، كان أول أمره مشتغلاً بالنظم المعرب فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم فصار إمام أهل الزجل، أنظر المغرب: ١/ ١٠٠.

(٣) الأدب الاندلسي موضوعاته وفنونه: ص ١٦٥.

(٤) النفح: ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٥) أبو بكر اليكي: يحيى بن عبد الجليل بن سهل اليكي نسبه إلى يكه (حصن شمال مرسية) قال فيه صاحب المسهب (هو ابن رومي عصرنا وحطيئه دهرنا لا تجيد قريحته إلا في الهجاء ولا تنشط به في غير ذلك من الأنحاء) توفي بعد (٥٦٠هـ) أنظر: المغرب: ٢/ ٢٦٦ والنفح: ٣/ ٢٠٥.

(٦) المغرب: ٢/ ٢٦٧.

أعد الوضوءَ إذا نطقتَ به مُتذكراً من قبل أن تنسى
وأحفظ ثيابكَ إن مَررْتَ به فالظلُ منه يُنجِّس الشمسا

وهل هناك أقبح من هذا الهجاء؟ فالنطق باسمه ينقض الوضوء، بينما نواقض الضوء معروفة عن المسلمين فالتلفظ باسمه مساو لما يخرج من السبيلين... الخ والأقبح من ذلك الدعوة إلى ضم الثياب وحفظها عند المرور به فهو نجس غاية النجاسة فظله على ضألته ينجس الشمس على سموها وعظيم جرمها، ويبدو أن هذا الهجاء في أحد الفقهاء لان الشاعر عمد إلى استعمال صيغ الهجاء التي تغيظ الفقهاء.

وقال في هجاء أحد الأشخاص[١]

أبا عمرو إليك به حديثاً ألدَّ من شُرب العقار
أتذكرُ ليلة قد بتَّ فيها سليبَ الدرع محلولَ الازار
أُقبِّلُ منك طُغياناً وكفراً مكانَ الرقمتين من الحمار[٢]

والمعاني التي قصدها الشاعر في هجائه بينه واضحة تنال من خلق المهجور وشرفه وفيها افحاش وحط من قيمته.

ويقول اليكي في عصابة سوء[٣]:

عصابةُ سوء قبَّح الله فعلهم أتوا في رشيدٍ بالدناءة والقُبح
فزاروه من وقت الصباح إلى المسا ... من وقت المسا إلى الصبح

إذا جاء منهم واحدٌ قام واحدٌ كما اختلفتْ نحلُ الربيع على الجَبح[٤]

ومعاني الهجاء في هذه المقطوعة كسابقتها في فحشها واقذاعها وقد حذف المحقق اللفظة البذيئة التي تدل على فعلهم.

وابن الياسمين[٥] من الذين يركعون لغير سجود (المخنثين) لم يكن (على ما كان له من منصب العلم والتقدم عند السلطان يستتر بحاله، بل يتمازح فيه ولا يضيع بادرة تقع من أجله وله في ذلك أشعار كثيرة) [٦]. ويذكر ابن سعيد نقلا عن معجم أبي الوليد الشقندي (أن أبا الحجاج بن نمري[٧] عالم فاس لما استحسنت بالحضرة مذاكرته أحسن إليه وخلع عليه وحضر مع ابن الياسمين فاستقبح صورته واستحسن كلامه فقال فيه:

أيها اللابسُ لونَ الـ ليل ثوباً حينَ أظلم
والذي يُضمرُ داءً منه يوماً ما تألم
أنتَ من أقبح خَلق الـ ـله ما لم تتكلم
بشذورٍ باهراتٍ ساحراتٍ لو تُجسَّم
أصبحتْ في كل جيد حَسَنٍ عقداً مُنظَّم

---

[١] المغرب: ٢/ ٢٦٧.
[٢] الرقمتان: هو ما اكتنف جاعرتي الحمار من كية النار، ويقال للنكتتين السوداوين على عجز الحمار. اللسان مادة رقم
[٣] المغرب: ٢/ ٢٦٧.
[٤] الجبح: خلية العسل: اللسان مادة جبح.
[٥] ابن الياسمين: الجليس المتفنن الكاتب أبو محمد بن الياسمين عبد الله بن حجاج الاشبيلي نسب إلى أمه وكانت سوداء وكان هو أيضاً أسود تخرج باشبيلية في فنون العلم كان أول تعلقه بالفقه والتوثيق، ثم اشتغل بالنظم والنثر وفنون الآداب فصار من أعلام الأدباء والكتاب وجد مذبوحاً على باب داره سنة (٦٠١هـ) أنظر: الغصون اليانعة: ص ٤٢ – ٤٣.
[٦] الغصون اليانعة: ص ٤٥.
[٧] أبو الحجاج يوسف بن عبد الصمد بن علي كان له صيت بالمغرب وبمراكش وبأشبيلية إذ كان إقراؤه بها في دخوله الاندلس ثم عاد إلى بلده وقعد للإقراء في شرق جامع القرويين إلى أن توفي سنة (٦١٤هـ) أنظر الغصون اليانعة: ص ٤٩. الجاعرتان: مضرب الدابة بذنبها على فخذيها.

فلما بلغ ابن الياسيمن ذلك قال:

أيها الفاسي أتى ريـ ـحُك قبلَ النـجو يَفغم
في قريضٍ حَسنِ الصو رة بالهجـو مُـجذّم
فقبلـناه وقـد جـا ء لنـا بالمدح مُعلَم
ثلم قلنا: بمـــزاحٍ منكَ قـول ليس يعدم
إنمـا الشـأن فقية عالـــمٌ ليس يعلم
لا تراه الـدهرَ إلا بغريم الكـاسِ مُغرم
يرفضُ النفلَ مـع الفر ضِ أوان الزيرِ والبَم[1]
وإذا صـــلَّى رياءً كـان فيها مثل أبكم
في ثيـابٍ كربيـعٍ قد سـرى فيها المُحَرَّم
ذا جوابي وهو ظلـمٌ لك والبادي أظلـم)[2]

في المقطوعة الأولى نرى أن الفقيه ابن الحجاج عالم فاس يهجو ابن الياسمين ويعيره بما فيه من صفات ثلاث فهو أسود اللون لبس ثوب الليل وأنه يضمر داء الشذوذ فهو من المخنثين وهو من أقبح خلق الله صورة ما لم يتكلم بالشذور الباهرات والسحر الحلال، فكلامه كشذرات الذهب ولو يجسم لكان عقداً فريداً يزين كل جيد، وابن الحجاج قد جعل أول مقطوعته هجاً وأخرها مدحاً.

أما ابن الياسمين فيرد عليه هاجياً بقوله (أيها الفاسي) ولفظه الفاسي فيها تورية إذ تتضمن معنيين:

أولهما: النسبة إلى مدينة فاس وهذا المعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن ودلالة اللفظ عليه ظاهرة لم يرده الشاعر.

ثانيهما: أن لفظة (فاسي) اسم فاعل من فسا يفسو إذا أخرج ريحاً بلا صوت وهذا المعنى البعيد الذي يريده الشاعر فستره بالمعنى القريب.

ومن معاني الهجاء الأخرى التي نسبها إليه أنه مغرم بكل نزيه (مخاصم للخمرة) وأنه يقتصر في صلاته على الفروض ولا يصلي النوافل خصوصاً عندما تعزف الموسيقى في مجالس الأنس وأنه يرائي في صلاته وهو كالأبكم أثناء الصلاة فلا يجهر بالقراءة، ومعاني الهجاء هذه مؤلمة شديدة الوقع على النفس خصوصاً إذا كان المهجو من الفقهاء.

وإذا كان الحطيئة الشاعر المخضرم قد هجا نفسه (بقبح الخلقة) حين قال[3]:

أرى لي وجهاً شوَّه اللهُ خلقهُ فقُبِّح من وجه وقُبِّحَ حامله

فان الشاعر الاندلسي أبن حزمون المرسي[4] قد هجا نفسه بأكثر من ذلك وصورها بأبشع صورة حيث يقول[5]:

تأملتُ في المرآة وجهي فخـلتهُ كوجهِ عجوزٍ قد أشارتْ إلى اللـهو
إذا شئتَ أن تهجو تأمل خَـليقتي فان بها مـا قد أردتَ مـن الهجو

---

(١) الزير: كم الأوتار الدقاق، البتم: الوتر الغليظ، حاشية الغصون اليانعة، ص ٥٠.
(٢) الغضون اليانعة: ص ٤٩ – ٥٠.
(٣) ديوان الحطيئة: تحقيق نعمان أمين طه، ص ٢٨٢.
(٤) ابن حزمون المرسي: هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن حزمون كان متصلاً بالموحدين وله مدائح جليلة في المنصور الموحدي كان متسع القول في أنواع الشعر يقول القصيد ويغلب عليه القول في الموشح، كثير الميل إلى الهجاء يقذع فيه جداً توفي قريباً من سنة(٦١٤هـ)، أنظر: المغرب: ٢/ ٢١٤، وتاريخ الأدب العربي. د. عمر فروخ: ٥/ ٦١٣.
(٥) المغرب: ٢/ ٢١٤ – ٢١٥.

كأن على الأزرار مني عورةٌ تنُادي الورى غضواَ ولا تنظروا نحوي

فلو كنتُ مما تُنبتُ الأرضُ لم أكن من الرائق الباهي ولا الطيِّب الحلو
وأقبحُ من مرآي بطني فانه يُقرقر مثلَ الرعدِ في مهمه جو
وإلا كقلب بين جنبي محمد سليل بن عيسى حين فرَّ ولم يلو
تميلُ بشدقيه إلى الأرض لحيةٌ تظن بها ماءً يفرغ من دلو
ثقيلُ ولكن عقله مثلُ ريشةٍ تُصفّقها الأرواح في مهمه دوَّ[١]

كان من الممكن للشاعر أبن حزمون أن يصور وجهه كوجه فتاة قد أشارت إلى اللهو ولكنه أعرض عن ذلك لأن صورة الفتاة التي تدعو إلى اللهو ربما تكون مقبولة وذلك تحت الحاج الرغبة ودواعي الجسد في فورة الشباب، ولكنه أراد أن يرسم صورة بشعة مقززة لوجهه حين شبهه بوجه عجوز أشارت إلى اللهو لأن ذلك مستقبح ومرفوض – من العجائز – اجتماعياً ودينياً ونفسياً، وذلك لأن دواعي الرغبة عند العجوز قد تلاشت والشباب قد ولى ولأن المنتظر من العجوز التوبة والصلاح والتوجه إلى الله وطلب الرحمة والمغفرة لا طلب اللهو واللعب والتسلية.

وفي الأبيات الثلاثة الأخيرة من مقطوعته يتوجه إلى هجاء شخص يدعوه محمد بن عيسى فينعته بمختلف الصفات الذميمة فهو جبان ثقيل على النفس ضعيف العقل خفيفه وأنه لخفته كريشة تتقاذفها الرياح في صحراء واسعة ثم يسخر من لحيته التي تميل بشدقيه إلى الأرض كأنها ماء يسكب من دلو.

الهجاء السياسي:

الهجاء السياسي فيه (نزعة عمومية لا تقف عند الذاتية ولا تهدف إلى مصلحة خاصة أو تعبير عن حقد شخصي، فصوت الشاعر فيه هو صوت الشعب أو لسان الآخرين من الغاضبين المتذمرين، وقد شمل ذلك هجاء القضاة والفقهاء باعتبارهم أداة يتكئ عليها الحكام في تسيير دفة الحكم، فهم إذن يمثلون السلطة بشكل أو بأخر) [٢].

وهجاء القضاة والسخرية منهم ومن بلاهتهم وغفلتهم قديمة في الشعر الاندلس ترقى إلى أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) فأبن حيان يقول في المقتبس (ألقى عبد الله بن الشمر[٣] الشاعر يوماً بين سحاءات يخامز بن عثمان[٤] التي كان ينادي بها الخصوم للتقدم إليه سحاءة مكتوب عليها (يونس بن متى) و (المسيح بن مريم) وخرجت السحاءة إلى يده فأمر أن يدعى له بها فهتف الهاتف: يونس بن متى والمسيح بن مريم وأتصل الهاتف بخارج المجلس ولا مجيب إلى أن صاح ابن الشمر: إن نزولهما من اشراط الساعة ثم تناول سحاءة فكتب فيها:

يخامرُ ما تَنفكُّ تأتي بفضحة دعوتَ بن متى والمسيحَ بنَ مريما

---

[١] الأرواح: جمع ريح. الصحاح مادة روح المهمة المفازة البعيدة الأطراف والجمع المهامه أنظر الصحاح مادة مهه الدوّ المفازة أنظر الصحاح مادة دوا.

[٢] الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ٢٤٣.

[٣] عبد الله بن الشمر: عاش في فترة عصر الأمارة وعاصر الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ – ٢٣٨هـ) وكان نديمه وشاعره، أنظر النفح: ٣/ ٦١٣.

[٤] يخامر بن عثمان: ولاه الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ – ٢٣٨هـ) قضاء الجماعة بقرطبة ولم يكن أهلاً له وعامل الناس بخلق صعب ومذهب وعر وصلابة جاوزت المقدار فسلطت عليه الألسن وكثرت فيه المقالة. أنظر المقتبس لأبن حيان: ص ٦٤ – ٦٥.

فثوّبَ فينا ثم نـَاداك صائحٌ فأنهما لـما عـلى الأرض يُعلـما
قَفاكَ قَفا جحش ووجهُك مُظلمٌ وعقلُك ما يـسوى من البعر درهما
فلا عشتَ مودوداً ولا رحتَ سالماً ولا مِتَّ مفقوداً ولا مِتَّ مُـسلما) [١]

يتبين لنـا من خـلا هذه القصـة الطريفـة أن القاضـي يخـامر بن عثمـان كـان علـى درجـة عالية من الغفلة بحيث يدعو نبيين إلى ساحة القضاء لينظر في شـأنهم ولـم ينتبـه لـذلك وأمـران يدعى له بها (السحاءة) فيهتف الهاتف بأسمهما ويتصـل الهـاتف بخـارج المجلس ولا مجيـب، وأن معاني الهجاء التي نعته بها الشاعر لم تكن بعيدة عنـه وكـان أحق بهـا وأهلهـا لأنـه يتـولى منصـب القضـاء فـي عاصـمة الأنـدلس قرطبـة، ومـن البـديهي أن هذا الهجـاء يلحـق بالسـلطة الحاكمة التي ولته ارفع منصب للقضاء في الدولة، لـذلك نـرى أن الأمير عبـد الـرحمن الثـاني (٢٠٦ – ٢٣٨هـ) يـأمر الـوزراء بسـماع الشـهادة والنظـر فـي أمـر يخـامر ثـم عزلـه عـن القضاء[٢].

ولم يكن ابن الشمر الشاعر الوحيد الذي تولى هجـاء القاضـي يخـامر فهنـاك شـاعر أخـر تولى هجائه هو يحيى الغزال[٣] (ت ٢٥٠هـ) وفيه يقول ابن حيان (وانبرى لـه شـاعر قرطبـة في ذلك الزمان يحيى بن الحكم الغزال منتهك الأعراض ومخزي الرجـال فـأكثر هجـوه وذمـه ووصفه بالبله والجهل فندر بذكره فمن قوله في شعره له[٤]:

فسبحانَ مَنْ أعطاك بطشاً وقوة وسبحانَ مَنْ ولّى القضاءَ يخامرا

وقوله في أخرى:

فقلتُ له كلّفتني غيرَ صنيعتي كما قلدوا فضلَ القضاءِ يخامرا
فأصبح قد حارت به طُرقُ الهدى يُكابد لُجّياً من البحر زاخرا

وقال فيه:

لقد سمعتُ عجيبا من آبدات يخامر
قرأ عليه غلامٌ طه وسورةَ غافر
فقال: مَنْ قال هذا هذا لعمري شاعر
أردتُ صفعَ قَفَاهُ فخفت صولة جائر
أتيتُ يوماً بتيسٍ مُستعبراً مُتحاسر
فقلتُ: قُوموا إذبحوه فقال: إني يخامر

ومعاني الهجاء هنا تنصب على نسبه صفات الغباء والجهل إلـى القاضـي الـذي لـم يميـز بين آيات القرآن وبين الشعر والسخرية منه بتشبيهه بالتيس المتباكي.

ومن دواعي الهجاء السياسي خيانة العمال واحتجانهم الأموال وظلم الرعية من ذلك مـا يروي (أن الأمير عبد الله بن محمد عندما عزل جهور بن عبد الملك البختـي عـن عمـل كـورة البيرة لتظلم الرعيـة منـه قدم منهـا بمـال كثيـر مماغلـه، وتـاحف جماعـة مـن الـوزراء وأغفل

---

[١] المقتبس لأبن حيان: ص ٦٥.
[٢] أنظر فصول في الأدب الأندلسي: ص ٣٣ نقلاً عن القضاة بقرطبة: ص ٩٤ – ٩٧.
[٣] يحيى بن الحكم الغزال: أصله من جيان ولقب بالغزال لجماله فقد كان جميلاً في صباه وسيما في كهولتـه، وكـان شاعراً متمكناً عاصر خمسة من الأمراء المروانيين بالاندلس أخرهم الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم، توفي الغزال سنة (٢٥٠هـ) أنظر النفح: ٢/ ٢٤٥ – ٢٦١، عصر سيادة قرطبة. د. أحسان عباس، ص ١٥٧ – ١٦٠.
[٤] المقتبس: ص ٦٤ – ٦٥.

سليمان بن وانسوس[١] وهو منهم فاحقده على نفسه، وخلا الأمير عبد الله بالوزراء وشاورهم في أغرام جهور فكلهم دافع عنه وثنى الأمير عن همومه به إلا سليمان فأنه زمَّ[٢] به كتاباً، فقال له الأمير: مالك لا تقول يا سليمان؟ فقال: أن قلت خالفتهم لكني سوف أكبت بما عندي دونهم، وفصل الرأي للأمير.

فلما خرج إلى بيت الوزارة أكب على رقعة كتب فيها إلى الأمير بهذه الأبيات:

جاءَ الحمارُ حمار المرج مُحتشياً مما أفادَ من الأموال والطُرف[٣]
خلِّى لبيرة قد أودى بساكنها بقبح سيرته والعُنف والسَرَف
فأحمل على العير حملاً يستقلُ به وأترك له سبباً للتبين والعلف

فلما قرأ الأمير عبد الله أبياته أمر بإدخاله اليه فضحك منه وقال له: يا سليمان لو زدتنا في الأبيات لزدنا الحمار في الغرم وأمر باغرامه ثلاثة آلاف دينار) [٤].

فهذا الوالي الذي أطلق لنفسه العنان في سلب أموال الناس ظلماً وعدواناً يشبهه الشاعر بالحمار الذي ينطلق في الحقول يلتهم ما فيها مما تنبت الأرض لا فرق بينهما.

ومن الشعراء الناقمين على الأوضاع السياسية الشاعر أبو عبد الله محمد القلفاط[٥]، وذكر أبن سعيد نقلاً عن الحجاري أنه هجا الأمير عبد الله المرواني سلطان الأندلس بشعر منه[٦].

ما يَرتجى العاقلُ في مدة الرجلُ فيها مَوضِعَ الرأس

ووفد على إبراهيم بن حجاج ملك اشبيلية فأنشده قصيدة ذمّ فيها أهل بلده فأبغضه لذلك... فأنصرف إلى قربطة وابتدأ بهجاء ابن حجاج فقال شعره الذي فيه:

أبغي نوالَ الأكرمين معاً ولا أبغي نوالَ البومة البكماء

فالشاعر في بيته الأول يهجو الأمير عبد الله المرواني ويرى أن الأمور أصبحت معكوسة وأن السلطة بيد من لا يستحقها وأن من يستحقها بعيد عنها، وفي بيته الثاني ينسب إلى ابن حجاج ملك اشبيلية صفة البخل وأنه يتطلع إلى عطاء الأكرمين إلا ابن حجاج الذي يشبه البومة البكماء.

وإذا كان الشاعر محقاً في هجاء ابن حجاج لأنه لم ينله شيئاً من المال فأنه بعيد عن الصواب في هجاء الأمير عبد الله المرواني (٢٧٥ – ٣٠٠هـ) الذي قيل فيه أنه: (كان مقتصداً في ملبسه وشكله وجميع أحواله، مشيعاً للصدقات محباً للخير وأهله كثير الصلاة دائم الخشوع شديد الوطأة على أهل الظلم والجور) [٧].

ويذكر المقري نقلاً عن بعض العلماء المغاربة (إن من أعاجيب انقلاب الدنيا بأهلها قصة المنصور بن أبي عامر مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، ولم يزل أعداء

---

[١] سليمان بن وانسوس: أبو الربيع سليمان بن محمد بن اصبغ بن وانسوس، أصله من البربر ولإبائه رئاسة في مدينة ماردة وساد هو في حضرة قرطبة وصار وزيراً للأمير عبد الله وكان أديباً متفنناً وشاعراً مطبوعاً حسن البيان. أنظر المغرب: ١/ ٣٦٢.

[٢] زمَّ: سجل ومنه إطلاق لفظ (الزمام) على السجل في اصطلاح أهل الأندلس. أنظر المقتبس: ص ١٩٢.

[٣] اختشى: امتلأ. أنظر اللسان ماجة: حشا.

[٤] المقتبس: ص ١٩٢ – ١٩٣.

[٥] القلفاط: هو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن زكريا القلفاط القرطبي، جعله الحجاري من نحاة قرطبة المعروفين بالإقراء وجملة الشعراء المشهورين بالهجاء. أنظر المغرب: ١/ ٣٦٢.

[٦] المغرب: ١/ ١١١.

[٧] أنظر عصر سيادة قرطبة: ص ١٨ نقلاً عن البيان المغرب: ٢: ٢٢٨ – ٢٢٩.

المنصور بن أبي عامر يتربصون به الدوائر فغلب سعده الذي هو المثل السائر، وربما همس بعض الشعراء بهجوه وهجو الدولة جميعاً إذ قال:

أقتربَ الوعدُ وحانَ الهلاك وكلُ ما تحذره قد أتاك
خليفةٌ يلعبُ في مكتب وأمهُ حُبلى وقاضٍ يُناك

يعني بالخليفة هشام المؤيد لكونه كان صغيراً وأمه صبح البشكنسية، كان الأعداء يتهمون بها المنصور وذلك بهتان وزور وأفظع منه رميهم القاضي بالفجور والله أعلم بسرائر الأمور) [١].

ومعاني الهجاء هنا واضحة ودلالتها على فساد الأحوال السياسية بينه. ولما سجن المنصور بن أبي عامر الحاجب المصحفي[٢] قال في سجنه[٣]:

غرستُ قضيباً خلته عودَ كرمة وكنتُ عليه في الحوادث قيِّما
وأكرمُه دهري فيزدادُ خُبثه ولو كان من أصلٍ كريم تكرَّما

والقضيب هنا كناية عن المنصور بن أبي عامر، لأن المنصور نشأ تحت رعاية الحاجب المصحفي الذي كان حاجباً للخليفة الحكم المستنصر بينما كانت أولية المنصور بن أبي عامر كاتباً على باب قصر الخليفة ثم تدرج في المناصب بذكائه ودهائه إلى أن وصل إلى منصب الحاجب للخليفة هشام المؤيد بن الحكم، فالمصحفي هنا يصف المنصور بن أبي عامر بأنه خبيث فاسد الأصل ولو كان كريم الأصل والأرومة ما تنكر لمن رعاه وأحسن إليه ثم سجنه.

ومن معاني الهجاء السياسي وصف المهجو بالسفه (الجهل، ورداءة الخلق، ضعف العقل)، فلما (بلغ المعتصم[٤] أن خلف بن فرج السميسر هجاه احتال في طلبه حتى حصل في قبضته ثم قال له أنشدني ما قلت فيّ فقال له: وحق من حصلني في يدك ما قلت شراً وإنما قلت:

رايتُ آدمَ في نومي فقلتُ لهُ أبا البرايا إنّ الناسَ قد حكموا
إن البَرابرَ نسلُ منك قال إذن حواء طالقة إن كان ما زعموا

فنذر بلقين صاحب غرناطة دمي فخرجت هارباً إلى بلادك فوضع عليّ من أشاع ما بلغك عني لتقتلني أنت فيدرك ثأره بك ويكون الآثم عليك. فقال: وما قلت فيه خاصة مضافاً إلى ما قتله في عامة قومه؟ فقال لما رأيته مشغوفاً بتشييد قلعته التي يتحصن بها بغرناطة قلت:

يبني على نفسه سفاهاً كأنه دودة الحرير

فقال له المعتصم: لقد أحسنت في الإساءة إليه...) [٥].

ففي البيتين أعلاه سخرية مرة من البربر حتى أن آدم عليه السلام يتنصل من أبوته لهم وتبلغ السخرية ذورتها عندما يهم آدم بتطليق حواء إن كان ما قالوه صحيحاً.

---

[١] النفح: ١/ ٦٠٢.

[٢] جعفر بن عثمان المصحفي: هو حاجب الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ – ٣٦٦هـ) وكان المنصور ابن أبي عامر قد أصهر إلى غالب مولى الحكم المستنصر، واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة. أنظر النفح: ١/ ٣٩٦ – ٣٩٧.

[٣] النفح: ١/ ٦٠٢.

[٤] المعتصم بن صمادح: المعتصم بالله أبو يحيى محمد بن معن بن محمد بن صمادح (ملك المرية) ملك أقام سوق المعارف على ساقها وأبدع في انتظامها في مجالسها واتساقها... لم تخل أيامه من مناظرة ولا عمرت إلا بمذاكرة أو محاضرة، كان على فراش الموت عندما هاجم المرابطون مملكته سنة (٤٩٣هـ). أنظر القلائد: ١/ ١٤٦.

[٥] النفح: ٣/ ٤١٢.

أما البيت الأخير فهو في هجاء بلقين حاكم غرناطة وهو من البربر أيضاً إذ شبهه الشاعر بدودة الحرير التي تحبس نفسها داخل شرنقة تنسجها بنفسها وينسب عمله ذاك إلى جهله ورداء خلقه وضعف عقله.

ومن شعراء عصر الطوائف الذين اشتهروا بهجائهم المقذع أبو بكر بن عمار[١] ذكر المقري أنه (لما قال الوزير أبن عمار قصيدته اللامية الشهيرة في المعتمد والرميكية أغرت المعتمد به حتى قتله، وضربه بالطبرزين حتى فلق رأسه... والقصيد أولها:

ألا حيِّ بالغرب حيّا حِلالا أناخوا جمالاً وحازوا جَمالا
وعرّج بيومين أم القرى ونَمْ فعسى أن تراها خيالا

ويومين: قرية باشبيلية كانت منها أولية بني عباد وفي هذه القصيدة يقول معرضاً بالرميكية:

تخيّرتها من بنات الهجان رُميكية ما تُساوي عِقالا[٢]
فجاءتْ بكل قصير العِذار لئيم النِجارين عماً وخالا[٣]
قصارُ القدود ولكنهم أقاموا عليها قروناً طوالا[٤]
أتذكرُ أيامنا بالصبا وأنتَ إذا لُحتَ كُنتَ الهلالا
أعانقُ منك القضيبَ الرطيبَ وأرشفُ من فيك ماءَ زُلالا
واقْنعُ منك بدون الحرام فتقسِمُ جَهدك أن لا حلالا
سأهتك عِرضك شيئاً فشيئاً وأكشفُ سترَكَ حالاً فحالا

ومنها:

يا عامرَ الخيل يا زيدَها منعتَ القِرى وابحتَ العيلا

وسبب قول ابن عمار هذه القصيدة أن المعتمد ندر به وذيل على قصيدته الرائية المذكورة في القلائد بعد قوله:

كيف التفلتُ بالخديعة من يدَي رجل الحقيقة من بني عمار

وسخر به في أبيات مشهورة) [٥].

فأبن عمار في الأبيات المتقدمة يهجو ولي نعتمه وأفراد أسرته فيبدأ بهجاء الرميكية (زوج المعتمد) فيصفها باللؤم وخسة الأصل وأنها لا قيمة لها وان كانت لها قيمة فهي لا تساوي الحبل الذي يعقل به البعير ثم ينتقل بالهجاء إلى أبنائها فيصفهم بقصر القامة وهي صفة ذميمة لا تليق بالملوك ولكنهم (أقاموا عليها قروناً طوالا) كناية عن أفعالهم الخسيسة الشائنة ثم ينعتهم بخسة الأصل من جانب الأعمام والأخوال وبعدها يتحول بهجائه إلى صديقه وولي نعمته المعتمد بن عباد فيهجوه هجاءً فاحشاً ينال من شخصه وخلقه وشرفه بصورة شائنة مخزية ولم يبق للسباب والشتم موضعاً، وكان من حق ابن عمار أن يرد على

---

[١] أبو بكر بن عمار: شاعر المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ووزيره وصديقه الأثير، صحب المعتمد بن عباد من الصبا ونهاه المعتضد أبوه عن صحبته، ولما استقل المعتمد بعد أبيه جاءه ابن عمار مذكرا بمودته فتلقاه بأعظم قبول، وثب على مرسية لما أخذها لأبن عباد وأنفرد فيها بنفسه، هجا أبن عباد وزوجه الرميكية، قتله المعتمد بيده سنة (٤٧٧هـ) المغرب: ١/ ٣٨٩.

[٢] الهجيين: اللئيم الذي أبوه عربي وأمه أمة غير محصنة. أنظر اللسان مادة هجن. العقال: حبل يشد به البعير في وسط ذراعه. أنظر اللسان مادة عقل.

[٣] لئيم، لؤم: كان دنيء الأصل، المهان. أنظر اللسان مادة: لأم، النجار: الأصل الحسب. أنظر الصحاح مادة: نجر.

[٤] القد :قامة الرجل.

[٥] النفح: ٤/ ٢١٢ – ٢١٣، المغرب: ١/ ٢٨٩ – ٢٩٠، وفيات الأعيان: ٤/ ٤٢٨.

سخرية المعتمد بسخرية مماثلة لا أن يطعن شرفه وشرف عائلته ويسف ذلك الإسفاف المهين.

وكانت تلك القصيدة التي قالها ابن عمار السبب المباشر في قتله إذ أن الرميكية أغرت المعتمد به حتى قتله وضربه بالطبرزين ففلق رأسه[١] وذلك سنة (٤٧٧هـ) ويقول أبن خلكان: (ومن جملة ذنوبه عند المعتمد بن عباد ما بلغه عنه من هجائه وهجاء أبيه المعتضد في بيتين هما كانا من أكبر أسباب قتله وهما:

مما يُقبِّح عندي ذكرَ انـدلس سَماعُ معتضد فيها ومُعتمد
أسماءُ مملكة في غير موضعها كالهرِّ يحكي انتفاخاً صورةَ الأسد) [٢]

وقد يكون للبيتين دخل في ذلك ولكن السبب الرئيسي والمباشر ما سبق من هجائه المقذع للرميكية وأبنائها وللمعتمد بن عباد نفسه.

ومن الشعراء الهجائيين في زمن المرابطين يلقانا الشاعر أبو بكر الأبيض[٣] الذي أولع بهجاء الزبير بن عمر الذي كان أميراً للمرابطين على قرطبة فقال فيه:

(عكفَ الزبيرُ على الضلالة جاهداً ووزيرهُ المشهور كلبُ النارِ
ما زالَ يأخذ سجدةً في سجدةٍ بين الكئوس ونغمةِ الأوتارِ
فإذا اعتراه السهو سبَّحَ خلفه صوتُ القيان ورنةُ المزمار

ولما بلغ الزبير عنه ذلك وغيره أمر باحضاره فقرعه وقال: ما دعاك إلى هذا؟ فقال: إني لم أر أحق بالهجو منك، ولو علمت ما أنت عليه من المخازي لهجوت نفسك أنصافاً ولم تكلها إلى أحد، فلما سمع الزبير ذلك قامت قيامته وأمر بقتله) [٤]، وهكذا دفع الأبيض دمه ثمناً لتحديه موقفه الشجاع وصراحته النادرة[٥].

ومعاني الهجاء في أبيات الأبيض السابقة موجعة شديدة الإيلام عظيمة الوقع على النفس وذلك لأنها تتناول شخصيه سياسية كبيرة ومسؤولية الموقع السياسي تتطلب من صاحبها التحلي بالصفات الواجب توافرها فيمن هو في موقع القيادة والمسؤولية لأنه قدوة للناس في سلوكه وما يصدر عنه، ولكن الشاعر الأبيض جرد الزبير من كل صفات الخير ونسب إليه كل الرذائل، فهو عاكف على الضلالة والعكوف على الشيء يعني ملازمته والمواظبة عليه فالزبير ملازم للضلالة ومواظب عليها.

وتلك الضلالة تتمثل في شربه الخمرة وسماعه الموسيقى وغناء القيان، والأشنع من ذلك انه يؤدي صلاته في المكان نفسه الذي يشرب فيه ويسمع الموسيقى وأصوات القيان فإذا سها في صلاته فأن الذي ينبهه إلى ذلك صوت المغنيات وصوت الموسيقى وهذه الغاية في الهزء والسخرية، وذلك لأن المعروف عند المسلمين في المساجد أن الإمام عندما يسهو في صلاته فينقص فيها أو يزيد يأتيه التنبيه من المأمومين فيقول أحد المصلين (سبحان الله) فيعرف الإمام أنه قد سها في صلاته فيتدارك ذلك السهو، أما الزبير فإذا ما سها في صلاته (سبح خلفه صوت القيان ورنة المزمار).

---

[١] أنظر النفح: ٤/ ٢١٢.
[٢] وفيات الأعيان: ٤/ ٤٢٨.
[٣] أبو بكر الأبيض: أبو محمد بن أحمد الأنصاري المشهور بالأبيض، أصله من قرية همدان تأدب باشبيلية وقرطبة وهو شاعر مشهور ووشاح حسن التصرف هجاء، ولع بهجاء الزبير، قتله الزبير سنة (٥٤٤هـ). أنظر المغرب: ١/ ١٢٧ – ١٢٨، وفيات الأعيان: ٤/ ٤٣٧.
[٤] النفح: ٣/ ٤٨٩ – ٤٩٠ وأنظر المغرب: ٢/ ١٢٧ – ١٢٨.
[٥] أنظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ٢٥١.

(ولما كان بعض رجال الدين من قضاة وفقهاء يمثلون السلطة بشكل أو بأخر ويساندونها ويستغلون نفوذهم الديني للإثراء وتجميع الثروات والقطاعات، فلابد أن يسلط عليهم الشعراء شواظ غضبهم ونقمتهم... فهجاء القضاة والفقهاء إذن جزء من الثورة ضد السلطان، وهو ميدان آخر للتعبير عن السخط وعدم الرضا لمجريات الأمور... وقد كانت معظم معاني أهاجيهم في أولئك تتحرك ضمن وصفهم بالرشوة والدجل والرياء والجهل وإحلال المحرمات واستغلال الدين للمنافع الشخصية) [١].

قال أبو بكر الأبيض في هجاء الفقهاء المرائين[٢].

أهلَ الرياء لبستم ناموسكم كالذئب يُدلج في الظلام العاتم[٣]
فملكتم الدنيا بمذهبِ مالك وقسَّمتم الأموالَ بابن القاسم[٤]
وركبتم شُهبَ البغال بأشهبَ وبأصبغَ صُبغت لكم في العالم[٥]

فهؤلاء الفقهاء المرائين استغلوا الدين في سبيل منافعهم الشخصية ولا فرق بينهم وبين الذئاب المدلجة في الظلام بحثاً عن فريستها، وقد ملكوا الدنيا بمذهب الإمام مالك واقتسموا الأموال واحتازوها لأنفسهم باسم الفقيه ابن القاسم، وأنهم ركبوا (البغال الشهباء) البيضاء كناية عن المكانة الاجتماعية الرفيعة وعن الثروة التي جمعوها باسم الفقيه أشهب، وأنكم نلتم الشهرة والمكان بمذهب أصبغ بن الفرج.

وقال الأبيض في هجاء ابن حمدين قاضي قرطبة واصفاً إياه بالبخل في سخرية مضحكة[٦]:

يُريد ابنُ حمدين أن يُقتفى وجدواه أنأى من الكوكب
إذا ذُكرَ الجودُ حكَّ أسته ليُثبتَ دعواهُ في تغلب

يشير بهذا إلى قول جرير في الأخطل التغلبي:

والتغلبي إذا تنحَنحَ للقِرى حَكَّ أسته وتمثلَ الامثالا

وفي عصر المرابطين أيضاً نلتقي شاعراً آخر عرف بالهجاء وشهر به وهو اليكي[٧] وهومن جملة الشعراء الذين فخر بهم أبو الوليد الشقندي في رسالته فقال (وهل منكم من مدح بمعنى فبلغ به النهاية من المدح ثم نقله إلى الهجاء فبلغ به النهاية من الذم وهو اليكي في قوله مادحاً:

قومٌ لهم شرفُ العلافي حميرٍ وإذا انتموا لمتونة فهمُ همُ
لما حووا إحرازَ كلَ فضيلةٍ غَلبَ الحياءُ عليهم فتلثموا

---

[١] الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ٢٥٥.
[٢] تاريخ الأدب العربي. د. عمر فروخ: ٥/ ٢٩٥.
[٣] الناموس: القانون أو الشريعة والقرينة هنا تدل على أن الناموس ثوب أسود. م. ن.
[٤] مالك: الإمام مالك بن أنس فيقه أهل المدينة وصاحب المذهب المالكي الذي يعمل به جميع أهل الاندلس والمغرب. أنظر تاريخ الأدب العربي. د. عمر فروخ: ٥/ ٢٩٥. ابن القاسم: هو ابو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم فقيه مالكي صحب مالك بن أنس، جمع بين العلم والزهد (ت ١٩١هـ) في مصر، وهو صاحب المدونة (كتاب الفقه المعتمد في المغرب والاندلس) في رأي أتباع مالك، وعن ابن القاسم رواها سحنون (١٦٠ – ٢٤٠هـ) وهو فقيه أهل المغرب أنظر: تاريخ الأدب العربي. د. عمر فروخ: ٥/ ٢٩٥ - ٢٩٧.
[٥] أشهب بن عبد العزيز القيسي: فقيه الديار المصرية على مذهب مالك (١٤٥ – ٢٠٤هـ) أصبغ بن الفرج: (ت ٢٢٥هـ) من كبار الفقهاء المالكية في مصر، وكان أعلم الخلق برأي مالك. م. ن.
[٦] المغرب: ٢/ ١٢٧ – ١٢٨.
[٧] اليكي: أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن سهل اليكي نسبة إلى يكة (حصن شمال مرسية).. (هو أبن رومي عصرنا وحطيئة دهرنا لا تجيد قريحته إلا في الهجاء ولا تنشط به في غير ذلك من الأنحاء) توفى بعد سنة (٥٦٠هـ) أنظر المغرب: ٢/ ٢٦٦، والنفح: ٢/ ٢٦٧.

وفي قوله هاجياً:

إن المرابطَ بأخلٌ بنواله لكنه بعياله يتكرمُ
الوجهُ منه مُخلّقٌ بقبيح ما يأتيه فهو من أجله يتلثمُ) [١].

ومعاني الهجاء في بيتي اليكي تنصب على وصف فالمرابطي بالبخل فالمرابي يضن بماله ولكنه يجود بعرضه وان وجهه أصبح بالياً متهرئاً خلقاً من سوء وقبح أفعاله ولأجل ذلك فهو يضع اللثام.

ولليكي مقطوعة أخرى يتناول فيها الملثمين (المرابطين) بالهجاء وهو هجاء مقذع حيث ينسب إليهم كل الصفات الذميمة في قوله[٢]:

في كل مَنْ ربطَ اللثامَ دناءةً ولو أنه يعلو على كيوان[٣]
ما الفخرُ عندهم سوى أن يُنقلوا من بطن زانية لظهر حصان
المنتمون لحِميرٍ لكنهم وضعوا القرونَ مواضعَ التيجان
لا تطلبنَّ مرابطاً ذا عفة وأطلبْ شعاعَ النار في الغدران

فكل مرابطي فيه دناءة وخسة مهما علت منزلته ولو طال زحل في العلو وهؤلاء الملثمون المنتمون لقبائل حمير وضعوا القرون مواضع التيجان كناية عن سوء أفعالهم وقبح ما يأتونه، والعفة بعيدة عنعم، ويستحيل أن تجد مرابطاً عفيفاً كما يستحيل البحث عن النار في غدران الماء.

وقال المقري: (ولما أفرط أبو بكر يحيى اليكي في هجاء أهل فاس تعسفوا عليه وساعدهم واليهم مظفر الخصي من قبل أمير المسلمين علي بن يوسف والقائد عبد الله بن خيار الجياني وكان يتولى أموراً سلطانية بها، فقدموا رجلاً أدعى عليه بدين وشهد عليه به رجل فقيه يعرف بالزناتي، ورجل آخر يعرف بأبي الحسين من مشايخ البلد فاثبت الحق عليه وأمر به إلى السجن فرفع إليه وسيق سوقاً عنيفاً، فلما وصل إلى بابه طلب ورقة من كاتبه وكتب فيها وأنفذها إلى مظفر مع العون الذي أوصله إلى السجن فكان ما كتب:

أرشوا الزناتي الفقيهَ ببيضةٍ يشهدُ بأنَ مظفراَ ذو بيضتين
وأهدوا إليه دجاجةً يحلف لكم ما ناكَ عبد الله عرسَ أبي الحسين) [٤]

والبيتان يظهران جرأة اليكي وصلابته وقدرته على أن يجمع شتات فكره وهو يساق إلى السجن سوقاً عنيفاً وأن ينظم بيتين يهجو بهما كل المتنفذين في البلد (الوالي مظفر الخصي، والقائد عبد الله بن خيار الجياني، والقاضي الزناتي، وأبي الحسين أحد مشايخ البلد).

وقال في هجاء أهل فاس[٥]:

ولا تَهبْ كلَ فاسي مررتَ به وإن تقلْ فيه خيراً حوِّل الدرقة
والعنة شيخاً وكهلاً إن مررت به .... طفلاً ولو الفيته عَلَقَة

ولليكي هجاء كثير غير ما ذكرنا تناول به المرابطين والقضاة وغيرهم[٦].

---

[١] النفح: ٣/ ٢٠٥.
[٢] المغرب: ٢/ ٢٦٧ – ٢٦٨.
[٣] كيوان: أسم زحل بالفارسية، ويضرب به المثل في العلو والبعد.
[٤] النفح: ٣/ ٣٢٤.
[٥] المغرب: ٢/ ٢٧٠.
[٦] أنظر المغرب: ٢/ ٢٦٦ – ٢٧٠.

ومن الشعراء الهجائيين في عصر الموحدين أبو جعفر أحمد بن طلحة[١] قتل سنة (٦٣١هـ) وكان شديد التهور كثير الطيش ذاهباً بنفسه كل مذهب (قالوا لما لم ينقع بما أجرى عليه السبتي[٢] من الإحسان فكان يوغر صدره من الكلام فيه، فذكروا أن السبتي قال يوماً في مجلسه: رميت يوما بسهم من كذا فبلغ كذا. فقال أبو طلحة لشخص كان إلى جانبه: والله لو كان قوس قزح، فشعر أبو العباس إلى قوله ما يشبه ذلك، واستدعى الشخص وعزم عليه فأخبره بقوله فأسرها في نفسه إلى أن قوى الحقد عليه ما بلغه عنه من قوله يهجوه:

سمعنا بالموفق فارتحلنا وشافعُنا له حسبٌ وعلمُ
ورمتُ يداً اقبلها وأخرى أعيشُ بفضلها أبداً وأسموا
فأنشدنا لسانُ الحال عنه يدٌ شلاً وأمرٌ لا يتم) [٣]

والشاعر الينشتي لم يكن وفياً لمن آواه وأحسن إليه وانتشله من الضياع بعد فراره من أبن هود فهو يتنكر لليد اليت انتشلته من الفقر والجوع والخوف فيصفها بالبخل والشلل.

وفي عصر الموحدين نلتقي شاعراً عرف بالهجاء وهو الشاعر أبو عبد الله محمد بن الصفار القرطبي[٤]، (وكان هذا الشيخ باقعة قد أخذ نفسه بالوقوع في الأعراض... وحسبك أنه لما قال أبو زيد الغازازي كاتب المأمون بن المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن قصيدته التي أولها (الحزم والعزم منسوباً للعرب) وكان أنصاره عرب جشم، قال ابن الصفار في مناقضتها قصيدته التي منها في ذكر المأمون عم يحيى بن الناصر ومخاصمه على الخلافة:

وإن ينازعكَ في المنصور ذو نسبٍ فنجلُ نوح ثوى في قسمة العطب
وإن يقلْ أنا عمٌ فالجوابُ لهُ عمُ النبي بلا شكٍ أبو لهب
وشاعت القصيدة وبلغت المأمون فحرص على قتله) [٥].

وابن الصفار هنا يقف إلى جانب ممدوحه يحيى بن الناصر في فاس مدافعاً عنه ضد عمه المستنصر، وأراد أن يدعم موقفه ذاك بقوله إن القرابة والنسب لا شأن لها فيما هم بصدده (النزاع على الخلافة) فنوح عليه السلام نبي ولكن أبنه لم يتبعه قال تعالى على لسان نوح (وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونادي نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) هود: ٤٢.

وكذلك كان أبو لهب عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان يناصبه العداء ويكيد له ومعنى الهجاء هنا واضح فأنه ينسب المستنصر إلى الكفر مشبهاً إياه بأبي لهب قال تعالى (تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب) سورة المسد: ١ -٣.

---

[١] أبو جعفر أحمد بن طلحة: من بيت مشهور بجزيرة شقر من عمل بلنسية كتب عن ولاة بني عبد المؤمن ثم استكتبه ابن هود حين تغلب على الاندلس وآل أمره إلى أن فسد ما بينه وبين ابن هود وفرّ إلى سيته فأحسن له ملكها الموفق الينشتي، ثم بلغة أنه يكثر الوقوع فيه فأرسل إليه من قتله سنة ٦٣١هـ. أنظر اختصار القدح المعلي: ص ١١٤ – ١١٦، المغرب: ٢/ ٣٦٤.

[٢] السيتي: ورد أسمه في المغرب ٢: ٣٦٤ (الموفق الينشتي) وفي اختصار القدح ص ١١٦ ورد أسمه هكذا (أبو العباس الينشتي).

[٣] الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/ ٢٣٥ – ٢٣٩.

[٤] أبو عبد الله محمد بن الصفار القرطبي: بيته مشهور بقرطبة ونشأ أبو عبد الله حافظاً لفنون الآداب إماماً في علم الحساب مع أنه كان أعمى مقعداً مشوه الخلقة، سافر إلى بغداد وتونس (ت ٦٣٩هـ). أنظر اختصار القدح، ص ٢٠٣، المغرب: ١/ ١١٧ – ١١٩.

[٥] المغرب: ١/ ١١٨، وأنظر اختصار القدح: ص ٢٠٣.

الخاتمة

يقسم شعر الهجاء الاندلسي بصورة عامة إلى قسمين:

أولهما: شعر الهجاء الاجتماعي وتغلب عليه سمة الذاتية وينظم بأسلوب بسيط واضح ليسهل فهمه من قبل الآخرين وليكون وقعه في النفوس أشد، وتتعلق معانيه بخلق المهجو وشرفه وسلوكه وبخلع صفات الجبن والفرار عليه أو بوسمه بالقبح والبخل والخيانة والنفاق والفسوق والفجور وهجاء الشاعر لنفسه وولده.

ثانيهما: الهجاء السياسي: وفيه نزعة عمومية لا تقف عند الذاتية ولا تهدف إلى مصلحة خاصة، وصوت الشاعر فيه هو صوت الشعب، وقد شمل ذلك هجاء القضاة والفقهاء باعتبارهم أداة يتكئ عليها الحكام في حكمهم. وتتعلق معانيه بوصف المهجو وخاصة الفقهاء والقضاة بالبلاهة والغفلة والجهل والغباء، ووصف العمال (الأمراء) بالخيانة وعدم أهليتهم لما يشغلونه من مناصب سياسية أو وصفهم بالدناءة وخسة الأصل والهجنة أو وصف الأمراء بالفسوق والفجور ووصف القضاة، بأنهم مراؤن ويأخذون الرشوة وغيرها من الصفات الذميمة.

ويتسم شعر الهجاء الاندلسي كما ظهر لنا بالسمات الآتية:

١- شعر الهجاء فيه إفحاش واقذاع واستخدام بذئ الألفاظ.

٢- وفيه تطرف شديد وقد غلا بعض الشعراء في ذلك حتى فاقوا رواد هذا الضرب من المشارقة.

٣- شاعرات الأندلس أشد إفحاشاً واقذعاً من الشعراء في هجوهم وهم مفحشون سواء استخدموا الألفاظ البذيئة أو استغنوا عنها.

٤- هجا بعض الشعراء أنفسهم وكانوا في هجائهم اشد اقذاعاً من الحطيئة.

٥- هناك ظاهر تميز بها شعر الهجاء الاندلسي وهي نشوب معارك هجائية بين الشاعرات والشعراء كما حدث بين نزهون بنت الكلاعي وأبي بكر المخزومي أو بينها وبين ابن قزمان وكذلك هجاء ولادة بنت المستكفي لأبن زيدون.

٦- اتكأ شعراء الهجاء الاندلسيين على آيات الذكر الحكيم فاقتبسوا ألفاظها ومعانيها واستخدموها بكثرة في هجائهم.

٧- لم تكن الغاية من الهجاء التكسب بل التعبير عن موقف الرفض للسلطة ومن يمثلها (قضاة، فقهاء، ولاة، عمال...) وقد دفع بعض الشعراء حياتهم ثمناً لمواقفهم الجريئة وتشرد بعضهم. وكذلك الرفض لبعض الظواهر الاجتماعية وبعض أخلاقيات المجتمع والذين تكسبوا بشعرهم الهجائي قلة قليلة مثل الأعمى المخزومي وابن قزمان.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم
١- الإحاطة في أخبار غرناطة – لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطاب، تحقيق محمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي – القاهرة. الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٣م.
٢- اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى ٠- لابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى (٦١٠ – ٦٥٨هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري. دار الكتاب المصري – القاهرة دار الكتاب اللبناني – بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
٣- الأدب العربي في الأندلس تطوره موضوعاته وأشهر أعلامه – د. محمد علي سلامة، الدار العربية للموسوعات – بيروت – لبنان. الطبعة الأولى ١٩٨٩م.
٤- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه – د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين – بيروت. الطبعة الثالثة – ١٩٧٥م.
٥- تاريخ الأدب الاندلسي عصر سيادة قرطبة – د. أحسان عباس، دار الثقافة – بيروت. الطبعة الثانية .١٩٦٩
٦- تاريخ الأدب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين – د. أحسان عباس، دار الثقافة – بيروت. الطبعة الأولى ١٩٦٢م.
٧- تاريخ الأدب العربي. المغرب والاندلس. د. عمر فروخ، دار العلم للملايين بيروت – لبنان.
٨- تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول – د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر. الطبعة الثانية ١٩٦٦م.
٩- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس – الحميدي أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح ابن عبد الله الازدي المتوفي سنة ٤٧٧هـ، الدار المصرية للتأليف والترجمة – مطابع سجل العرب – القاهرة – ١٩٦٦م.
١٠- الحيوان – أبو عثمان عمر بن بحر بن محبوب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون. دار الجيل – بيروت ١٩٦٦م.
١١- ديوان الحطيئة. بشرح ابن السكيت والسكري والسجستاني، تحقيق نعمان أمين طه. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر الطبعة الأولى ٠ ١٣٧٨ هم ١٩٥٨م.
١٢- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس. د. محمد مجيد السعيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام – بغداد، دار الرشيد للنشر ١٩٨٠م.
١٣- الصحاح. إسماعيل بن حماد الجوهري، اعتنى به خليل مأمون شيحا. دار المعرفة – بيروت. الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
١٤- الصلة- لابن بشكوال أبي القاسم خلف بن عبد الملك (٤٩٤ – ٥٧٨هـ)، نشره السيد عزت العطار. مكتبة المثنى – بغداد – مكتبة الخانجي – القاهرة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
١٥- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة – لأبن سعيد أبي الحسن علي بن موسى الاندلسي (٦١٠ – ٦٨٥هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري دار المعارف بمصر – ١٩٤٥م.
١٦- فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة – د. حكمة علي الأوسي، مطبعة سلمان الأعظمي. بغداد ١٩٧١م.
١٧- في الأدب الاندلس – د. جودت الركابي، دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ١٩٧٠م.

١٨- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان – أبو نصر الفتح بني محمد بن عبيد الله القيسي الاشبيلي الشهير بأن خاقان (ت ٥٢٩هـ) تحقيق د. حسين يوسف خريوش مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن. الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩م.
١٩- لسان العرب – لأبن منظور (٦٣٠ – ٧١١هـ) اعتنى بتصحيحه أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي. دار أحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي. بيروت- الطبعة الثالثة.
٢٠- المغرب في حلى المغرب – لأبن سعيد أبي الحسن على بن موسى الاندلسي، دار المعارف بمصر – ١٩٦٤م.
٢١- المقتبس من أنباء أهل الاندلس – لابن حيان القرطبي، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي – بيروت ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣م.
٢٢- نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب – أحمد محمد المقري التلمساني، تحقيق أحسان عباس، دار صادر بيروت ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م.
٢٣- الهجاء والجاؤون في الجاهلية – د. محمد حسين، الناشر مكتبة الآداب – الجماميز. مصر.
٢٤- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن خلكان – تحقيق د. أحسان عباس. دار الثقافة – بيروت.

Abstract

The meaning of satire in Andalusian Poetry

When I was searching the references of the Andalusian Literature. I found some verses in satire which attracted my attention and took me by surprise because they were very courageous in mentioning the private parts and because they were full of insult, use of abusive terms and the disgrace of the satirist. Besides, what most took me by surprise is the participation of poetess in this matter. Their satirical poems were more obscene and vulgar than those of men. That is why, I wanted to tackle this subject to talk about the satirical poetry in the different Andalusian eras. The main findings of the study are:

1. Satirical poetry is absent and it was abusive words.
2. It is characterized by being very extreme and some poets exceeded the eastern leaders of this art.
3. The Andalusian poetess are more vulgar in their attacks than the poets and they are obscene whether they used abusive terms or not.
4. Some poets satirized themselves and they were more vulgar than Hat'ia.
5. Another phenomenon which characterized the satirical poetry is the break-out of satirical battles between poets & poetess such as between Nazhoon bint-Al-Kala'I and Abi-Baker Al-Maxzomi or between her and Ibn-Qazman and also the satire of Walada bint-Al-Mostakfi of Ibn Zaydon.
6. the poets quoted some terms and meanings from the verses of the Holy Quran and used them in their satire.
7. The purpose behind satire was not earning but expressing their rejection of the authority and its representatives (Judges, Faqis, Walis and worers) and some poets sacrified their life for their courageous stances.